

سَيِّدُ الدِّينِ اِبْرَاهِيْمَ

فَخَيَّرَ ...

بِحُجْرَةٍ قَصِيصَةٍ



## الإهداء



إلى من أخذ بيدي يوم كنت أحمو فذرجت . . .  
إلى من غرس في نفسي هواية الأدب وحب البيان . . .  
إلى من روض لي القلم ولم ينتظر ليراه ينطق في عيني . . .  
إلى الخالد في السماء ، وفي قلبي . . . إلى والدي محمد خير الحبال  
أهدي باكورة إنتاجي الأدبي !

صيدا - شباط ١٩٥٤

محمد خير الحبال



## المقدمة

كنت مغرماً في صغري باصطياد الأسماك من البحر ، أقدمها لوالديّ هدية متواضعة . وكان البيت والبحر والعائلة كل عالي الصغير آنذاك . أما الآن وقد تمدد ذلك العالم حتى شمل الانسانية والكون بأسره ، فاني اصطدت بضعة قصص من بحر المجتمع ، أقدمها للقراء غذاء لأرواحهم الذوّاقة .

وللقراء في القصة رأي . إنهم لا يريدون الأدب لنفسه ، حتى ولو كان في قفص من ذهب أو شرنقة من حرير . بل يريدونه تصويراً لواقعهم وتعبيراً عما يعمل في نفوسهم من مشاعر وأحاسيس . إنهم لا يريدون القصة بوليسية أو خلاعية تستثير غرائز الناشئة . بل يريدونها حكمة في كأس تسلية ، وشهداً لذته فائدة .

وفي مجموعة القصص هذه ، يجد القراء بعض ما يريدون . إذ استقيت حوادثها من الحياة نفسها ، عارضاً بأسلوب للقارئ ان يحكم عليه ، صوراً من مشاكل المجتمع وبلاياه . ولم أنصب من نفسي واعظاً أرشد الناس إلى السبيل الذي به يجالون مشاكلهم هذه . فلكل رأيه . واحترامي للجميع .

المؤلف

## ضحايا

كانت الأمواج تعزف على صخور الشاطئ و لحن الخلود . . . وكان الزبد الأبيض يتألق كاللمس في أشعة الشمس . . . ومن نافذة إحدى الغرف المشرفة على البحر في منزل الاستاذ كامل نور، كانت تطل فتاة مشرقة الحيا ، بهيئة الطلعة ، ربانة الفصن ، وكانت تتوجه بنظراتها الحاملة إلى الأفق البعيد . ولم تكن ترى شيئاً لأنها لم تكن تنظر إلا إلى أفق خيالها الرحب . كانت تقرأ هناك ، في تموجات النور ، قصة حبها الخالد . وكانت ترى خلال الاسطر الشفافة ، صورة حبيبها سعيد . . .

واستولت في أحلامها العذبة ، فراحت تتابع حوادث قصتها بنشوة ، وقد اعترى أعصابها تخدر لذيد .

كان ذلك في العام الماضي ، عندما اجتمعت العائلة الصغيرة - المؤلفة من الاستاذ كامل وزوجته وابنتها منى - اجتمعت الاسرة حول بهية وابنها سعيد حوملي . وبهية هي ابنة عم الاستاذ ، وفدت من صيدا إلى بيروت . فلقد أتم ابنها تحصيله الثانوي ، وذاق به ميدان العمل في بلده ، فجاءت به إلى بيروت عساه يجد فيها مرتزفاً . ونزلت على بيت نسيبها الاستاذ كامل نور ، عساه يساعد في الحصول على عمل لابنها وشقة لسكناهما . فاجتمعت الاسرة حول الضيفين مرحبة متمللة .

ودار الحديث حول شؤون وشؤون . . . وسعيد في صمت عميق . انه على

ويجوز ذاهل ، لا يكاد يعني ما يقال ، إذ لا شيء من ذلك يهسه . ما له وحاشاة الاحاديث . غير ان الكلام ما لبث أن تطور ، ودار حول ضحايا المجتمع . فصحا سعيد وقد أصابته الرعدة . واصاغ بأذنيه إلى الحديث . وما لبث ان اشترك به . ولم يمض وقت حتى انفرد بالكلام . وكانت الكلمات تتدفق من فمه كالسيل الجارف ، في قوة طاغية جامحة . واثارت آراؤه إعجاب الجميع . فانصتوا وكان على رؤوسهم الطير .

وكانت منى لا تزال فتاة منظوية على نفسها . فلم تنتبه بأذى الأمر إلى حديثه . بل لم تنظر إليه الا النظرة العابرة . ولكن حديثه الرزين ما لبث أن غاص في نفسها إلى الأعماق . فرفعت رأسها ونظرت . . . من ذلك المتكلم في قوة وحماس ؟ ! ودقت النظر . . . انه شاب في مقتبل العمر ، معتدل القامة اسمر البشرة واسع العينين ، عميق النظرة . ان هذا الشاب على قسط من الجمال . فهو يستحق أن تستمع إلى حديثه ، واستتمت إليه . . . واحست لكلماته في نفسها تأثيراً غريباً ، وطاب لها الاستسلام لنفوذ إرادته الطاغية .

وتكررت زيارات سعيد لهم ، لقد وجد عملاً ومسكناً . وقد اطمأن إلى عمله كمدرس في احد المعاهد الاهلية ، وطاب له ان يكثر من زيارته لبيت كامل نور ، كما طاب له ان يجتمع العائلة الصغيرة حوله تنصت إلى حديثه باهتمام . أما منى ، فقد كانت تجد لذة كبرى في الجلوس أمام هذا الشاب اللبق الحديث ، والاستماع لكلامه في تأثر وانتباه . وذات مرة بادرت بقولها :

- أراك تكثر من ذكر ضحايا المجتمع . . . ألا تسرف في ذلك ؟ !

وقد استغربت من نفسها ذلك السؤال . غير انها في الحقيقة لم تكن تريد إلا محادثته واسترعاء انتباهه . وكان لها ما أرادت . إذ نظر الشاب إليها نظرة طويلة عميقة فاحصة ، ثم قال بتأن وهدوء :

- أجل . . . سنظل نذكر الداء حتى نجد له الدواء . سنظل نذكر الداء

حتى يثير في قلوبنا نار الحقد المقدس عليه . سنظل نذكر ضحايا المجتمع المتفسخ

حتى ننفذهم أو نموت . . . وكان الله ولي المصلحين !  
ولم تدر ما أجابته آنذاك . غير ان كل ما تذكره هو ان أحاديثها معه  
ازدادت ، وان الشاب أصبح يوجه معظم كلامه لها لا الى العائلة . . .  
ومضت الأيام حاملة معها من الامور الحسن . فتوطدت الصداقة بين منى  
وسعيد ، ثم تحولت الى حب جارف عنيف . وربطت بين قلبي الشابين عهد  
صامته خرساء ، ما لبثت أن غدت صارخة داوية ، ولم تعد تطيب الحياة لمنى بدون  
سعيد . . . ولم يعد العيش بيننا لسعيد الابن . . !

\* \* \*

- منى ! يا بنت ! أين أنت أيتها المنجوسة ؟  
وظل هذا الصوت يدوي في البيت وهو يزداد عنفا مرة بعد أخرى . إلى أن  
استطاع أخيراً أن يوقظها من ذكرياتها الخصال .  
- أين كنت أيتها الحبيبة ؟ ساعة مضت وأنا أناديك !  
فارتبكت منى وأجابت بصوت خافت :  
- لقد كنت نائمة يا بابا !  
غير ان الاب الغاضب أجاب بصوت نصف مقتنع :  
- كذابة ! لم تكوني نائمة !

فارتعشت . . . ترى . . . هل توصل إلى معرفة ما كانت تفكر به ! ان  
هذا مخيف . . . فالاب كان دائماً يحذرهما من ذلك الشاب . انه فقير . وهو  
لا يملك رأسمالا ولا زعامة . فليس لفتاته ان تحب من ليس بندي غنى . وقد  
كانت أمها دائماً تجلس إلى جانبها لتسرد لها ما بنته من آمال حول مستقبلها .  
وكانت تحلف لها « برأس النبي » انها لن تزوجها إلا من ثري موسر أو زعيم وجيه .  
وكانت هي منقادة إلى تعاليم أمها وأبيها ، فتضع فتى أحلامها في قصر من الذهب  
الاصفر البراق . وتمضي في نشوة تحديق من منظار أحلامها ، في بريق ذلك الذهب  
الساحر . وتنسى أن تنظر ولو لحظة ، إلى وجه فتاها أو أخلاقه ومزايده .

غير ان سعيد ، بعد أن تعرفت عليه ، هوى بمحول منهوماته الصحيحة على أساس قصرها الذهبي فدكه . فاقد أفهها ان كل قصر ذهبي انما يبنى على اساس من الجاهل ، ويجبل بالدماء والنوع . . .

إطراق وصمت وسكون . . . انه السكون الذي يسبق العاصفة !  
واندفعت العاصفة ، في نفس منى لا في نفس أبيها . ولكن . . . ما الذي حدث ؟ ان الوالد قد تكلم . وكان كلامه رهيباً . . . رهيباً على قلب منى ! فبعد أن أطرق هنيهة عقب حديثه السابق ، وبرد غضبه العابر ، قال بتأن ورزاة ،  
لكأن كلماته هي الجواهر :

- لقد أصبحت « صبية » يا منى !

وصمت ليرشق ابنته بنظرة باسمة متخابئة ، ثم أردف :

- أنت تكثيرين من النوم لتكثري من الاحلام : وأنا أعلم بماذا تحلمين . . .

ولذلك « دبرت » لك عريس أحلامك المنشود !!!

ورفع رأسه ليرقب أثر كلامه فيها ، فرأى وجهها يصفو ويحمر ، بينما أهدها الطويلة تحاول أن تخفي نظرة التساؤل في عينيها .

فقهقه وهو يربت على كتفها بعطف ثم قال :

لولا الحياء لسألتني عن اسمه . . .

ثم انحنى على أذنها يهمس :

انه جميل اللحام !

فأرادت ان تبكي . . . وأرادت أن تثور ! وزاد على عذابها صوت أبيها

الضاحك وهو يقول :

- « مبروك » يا منى !

مبروك . . . على ماذا ؟ . . . أعلى أسلامها الضائعة . . . أعلى سعادتها المحطمة . . .

أعلى قلبها الذبيح . . . !!!

وأخذ صدرها يعلو ويهبط بالعاصفة ، واختنق صوتها وهي تتمتم :

.. لا أريد أن أتزوج ..

فعمل أبوها فذلك منها على حمل الحبل وقال بركة :

.. أمن والدك تستحيين ؟ !

وأرادت أن تعبر عن افكارها فها وجدت من الجأش مسهناً . وشعرت  
بكبانها يهتز مع أعصابها المتوتبة . فركضت إلى غرفتها ، حيث ارتقت على  
سريرها تنسج في البكاء ..

\*\*\*

وأمام عمارة تشمخ على جيرانها في حي المصيطبة ، وقفت سيارة براقية ،  
فنزل منها كرش ضخم يحمل رأساً رجراجاً ، وصرخ السائق باحترام :  
.. مع السلامة جميل افندي !

وعدل الافندي من وضع كرشه المحترم ، واستخرج من جيبه ساعة ذهبية  
نظر فيها ، ثم أجاب دون أن يلتفت :  
.. الله يسلمك !

وما ان دخل شقته ، حتى ركضت اليه عجوز أكل عليها الدهر وشرب  
ومضت تحببه بشوق :

أهلا وسهلا يا حبيبي .. لماذا تأخرت عن الغداء ؟ ! ألا تراعي صحتك ؟  
فرشقها من عينيه الحولالوين بنظرة استنكار وهو يقول :  
.. كيف .. ألم تعلمي انني كنت مدعواً إلى الغداء في بيت الاستاذ كامل نور؟  
فضحكت العجوز بنجبت وهي تسأل :

ألم تر العروس يا بني ؟

فانبطت أسايريه وهو يهمس :

.. كلا .. ولكنني شعرت طوال الوقت بعيون تتلصص علي من شق الباب ..  
فقهقهت العجوز وصاحت بمرح :  
لقد علقت السبكة بالصنارة !

ثم أردفت بصوت حالم  
- ترى ... أيمهني الأجل إلى أن أرى أطفالك ... وهل سيكونون يمثل  
جمالك ...

فصرخ باستنكار :

- ما هذا الكلام يا أمه ! إنك لا تزالين « صبية » !  
وساد السكون على البيت وقد أطلق كل منها لحياله العنان . إلى أن قطعت  
الأم حبل الصمت فجأة :

- إن الاستاذ كامل طامع في ثروتك الغزيرة ومخازنك المدينة . ولكن  
صفقتناهي الراجحة لان ابنته ستوث البستان الذي يملكه في صيدا . وسيؤول اليها  
المنزل الذي يسكنه ...

فابتسم جميل وأخذ يربت على كرشه . ورفع يده يتحسس شاربته المحلوق  
ثم ردد بتيه وفخار :

- إنني أفكر بمشروع خطير . فالمتاجر لم تعد تقدم الجزيل من الأرباح .  
ولذلك سأقوم بإنشاء معصرة للبرتقال ، عساها تصل بثروتي الى المليون ... أما  
البضاعة فستكون من بستاننا المقبل ... أي بستان كامل نور اليوم !  
وأخذت الاحلام تنثر عبيرها في جو المنزل . ومضت تستبق السنين وتنتهب  
الايام ..

وكانت الاحلام تنثر عبيرها في جو منزل آخر ... حيث كان الاستاذ  
كامل وزوجته يتمتعان بالاوهام . وكانت الزوجة تقول :

إن أموال صهرنا لا تحصى ، وسنشترى بالمهر بستاناً جديداً ...

وكان الزوج يمس :

إن جميلاً في مثل سني وربما توفي قبلي . عندها أرث جميع أمواله وأملاكه .  
وهكذا تم الاتفاق على صفقة الزواج تلك ، بعد أن فكر الطرفان في كل  
شيء إلا منى . صاحبة العلاقة الاولى . ومضوا يعدون العدة ليوم الزفاف متخذين

من المصلحة رائداً ومن المادة دليلاً ! وقرأت الفاتحة ، وعقدت الخطبة ، ونشطت  
تحضير « الجهاز » !

وكانت منى مغلوبة على أمرها ، تبدي الرأي فتنهرها الام ، وتعرض  
فيصرخ الاب :

— ليس هذا « شغلك » . لا فتيات لدينا يعارضن آباءهن .

فتنطوي على نفسها ذليلة مهانة ، وتحس بالثورة في أعماقها تصرخ :

- شغل من إذن ؟ ! ومن الذي سيتزوج ! أهو أبوك ؟ !

واكنها لم تكن تجرؤ على معارضة ذويها وقد نشأت على احترامهم . فكانت

كما خلت الى نفسها تمضي تقارن بين حبيبها سعيد وخطيبها جميل . . . فتسمر

المقارنة في نفسها نار العذاب . وتنقم على المجتمع الفاسد المسلول ، هذا المجتمع

الذي يعيش في أكفان الماضي وتقاليده ، ليقف حبر عثرة في طريق الشباب

المتطور . ويشور صباها الغض على القيود البالية . . فتعلم بمستقبلها حسب ما تريده ،

وتعلم بسعيد حسبما تشتهي !

\* \* \*

وكانت الايام تمر سراعاً . . . وكأنما لا هم لها الا الوصول الى موعد عقد

القران ! وعلى نار الغضى كان يتلوى سعيد . . . فأمام عينيه تمت صفقة بيع منى ،

وأمام عينيه انشقت بينه وبينها الهوات . وأحس أن زيارته لبيت الاستاذ كامل

أضحت غير مرغوب فيها . فانقطع وفي قلبه غصة الحرمان . ومضى يمزق الأيام

وتمزقه . . . وقد أفلح في ذلك الطرفان . وأخذ يغرق نفسه في العمل حتى أذبه

لينسى داءه الفتاك ، فما استطاع النسيان . وأصابه الذهول فعبجز عن التدريس

وقد كان فيه على امتياز . وتسلسل اليه الهزال بعد أن كان في الصحة من الأشبال .

فهاجرت به على التقاليد نقمة . . . وعصفت به على الرجعية ثورة . . . فتسنى لو أنه

لم يولد . . . وتمنى لو أنه يموت . . . وتاق الى تحطيم كل شيء . . . ودعا الله ليهلك

الناس بطوفان . . . وكم تمنى وكم أراد . . . غير أن الواقع ظل هو الواقع . .

وأخذ يوم القران في الاقتراب ا  
وفي ظلمات اليأس المحيطة به كان يرى بصيصاً من ضياء . لقد كان يحس  
لشورته الالهية في قلب الحبيبة صدى . وقد كان يشعر أن في عينيه انداءً ، أغامضاً .  
واستد به الفلق وعذوبته الطيرة . فجلس ذات ليلة يخطط لها أول رسالة . وما أن  
أتمها حتى مزقها ليكتب ثانية . ومضى يكتب ويمزق . . الى أن لاحت نباشير  
فجر جديد . وكأنما أوحى له ورود الشفق بفيته . اذ استقر على ما انتهى اليه ،  
وأودع ما خط الغلاف .

واستلمت رسالته ، فوجدت فيها المخرج لعداها النائر الحبيس .  
وتواعدا على اللقاء . . .

وضحكت سديقة الصنائع وهما يدخلان .

والتفتت منى تمس لفتاها وقد ضاء وجهها بالاحلام

- لن أكون إلا لأحد اثنين .. أنت او عزرائيل !

فهدق في عينيهما بحنان ، وطوق خصرها بذراعه وهو يقول :

- لن تكونين إلا لي . . . حبنا أقوى من الموت !

فغرد بلبل على أحد الافنان . وعزف النسيم على بضع اغصان . وحومت

حولهما فراشة حسناء . . . والتصقت منى بحبيبتها تنساءل :

- سيدي . . متى تتحقق الاحلام . . ! ?

ومضيا يتناجيان . . وطقا يتها مسان . .

\* \* \*

اخذ القمر يختال بين نجوم السماء ، ومضى يسكب على بيروت الغافية ذوب

الفضة في سحر الضياء . واذا به يختبئ فيجأة وراء غمامة شفافة ، ليخفي عن الناس

شبحاً انسل من احد منازل المدينة ، ومضى يعدو في الشارع نحو شخص قاده

الى داخل سيارة ، اقتعدت ظل جدار . ودوى الليل بزئير محركات . . . ثم

بدا القمر من جديد ، يغمز الشارع الخالي بطيئة ودهاء !

وكان الهواء البارد يندفع إلى داخل السيارة بعنف وقوة، ليفرق بين شخصين  
التصقا في عناق . وهمس صوت يسأل في رعشة المقدم على المجهول :

- الى أين غضي يا سعيد ؟ ؟

فضحك بنشوة وهو يجيب :

- الى حيث نتزوج يا مناي !

وانحدا في قبلة طويلة . . . ثم التفت اليها يقول :

- اراك احضرت « صرة » ضخمة فما الذي فيها ؟

فقردت بمرح :

- إنها « الجهاز » ! لقد حضروها لتكون ثياب عرسي . . . وستكون !!

فأطبق على ثغرها من جديد . . . ثم غرقا في صمت ترفرف عليه الاحلام !

وتصورت أمها تنهض في الصباح لتكتشف فرارها وتركض إلى زوجها

تولول بالنبا الرهيب ، وتصورت أباه يرفس الارض ويلطم الهواء وهو يرغي

ويزيد ويلعن بغس « البنات » . ثم تصورت جميل يعتصر كرشه ليزور ما بين

حولايه وقد اكتشف ضياع العروس « والجهاز » . . .

فترنحت على ثغرها ابتسامة ، وتلوت في عينها دموع . . . ثم التفتت بخيالها

نحو المستقبل ، فرأت سعادتها في القران بحبيبها وشقاءها في البعد عن أهلها والعداء

مهيم . وهكذا مضت البسمة تستنزف الدمع من عينها ، وكان على وجهها

صراع . . . بين الألم واللذة !

ومضى سعيد بدوره يحلم بساعة القران ، ويتصور حبيبته بين ذراعيه حليمة ،

يتحد معها في رقصة الحب الحمراء . . . وكان يتصور آيات حسننها تملأ عينيه وقلبه

وعبير سحرها يسكر روحه وفكره ، وهو ينهل من كوؤس خمرتها شهد اللذة ،

ويرتشف من رحيق سنائها ذوب الهناء .

وكانت السيارة تندفع في جوف الليل ، وكأنها الشهاب الثاقب ، مجلجلة

صاخبة ، تعلن للناس قرده الحبيبين على تقاليد الناس . . .

وكان يرن في اذني سعيد صوت امه آمراً ناهياً :  
... دعك من منى يا بني . ان لك في النساء خيراً منها وأجمل ...  
وكان يدوي في سمعها صراخ أبيها الغاضب :  
... أنت طفلة يا قردة ... فلا تندفعي مع هوس الصبا وغواية الشيطان ...  
ولقد تم ما نهى عنه والدون . وثار الشبان على ارادة أهلهم ، ضاربين بالعرف  
عرض الحائط ، متخذين من الهوى مركباً ومن العاطفة رائداً ، ومضت بهما  
السيارة حتى إذا ما وصلت صيدا ترجلا منها إلى منزل صديق كان قد اخلاه  
حسب سابق اتفاق . اما السائق الذي كان صديقاً حميماً لسعيد ، فقد رجع  
إلى بيروت يدعو للحبيبين بطول المناء .

وما أن وجد العاشقان نفسيهما وحيدتين تحت سقف واحد ، حتى صبغ  
الحب والانفعال وجهيهما بالارجوان ، وعمدا الحياء والشهوة لسانيهما بقيد صراع ...  
فرفع إلى وجهها نظرات حنين ، ما لبثت أن تغلفت في أعماق لحظيم الفاتكين .  
وتكلمت العميون ، وتعالى زفير النار من القابدين ... فما وجد نفسه الا وهو محتضنها  
بجوع محروم ، منها لا عليها بسيل من القبلات . فاستكانت ثم نفرت ثم استكانت  
مجهشة في البكاء ! وجعل جسدها يهتز بين ذراعيه بالعواطف المتناقضة ، فضربت  
على بصره غشاوة ... ثم اجلست وقد كاد يهيم بأمر ! وومض في رأسه خاطر  
وثار في نفسه مروءة ، وانتفض ضميره من غفوة ... فانقلت والعرق يغسل  
جبينه ، وانتصب امامها يرتعش خجلاً ورهبة ! ثم همس بلسان يتلثم :

- نامي يا حبيبتي الآن ... ، وغداً احضر الشيخ ليعقد القران ...  
واستدار مبتعداً عنها وكأنه يهرب من خطيئة ، وتوارى في الظلام تلاخقه  
أشباح ما كاد يقترب من زلة ! واستكان الى سرير ينشد النوم فعصاه الوسن .  
وثقل عليه الليل وأفزعه الدجى ... وتراءت له في الحلك صور واشباح تفغر  
أفواهها متطاولة ... وتناهى إلى سمعه فحيح افاع ، وازيز نيران ... فكاد  
يصرخ وكاد أن يجن ! ثم عاودته الرغبة طاغية جامحة ... وانبتقت من الظلمات

صورة لمنى تسيل مفاتنا وتنضح شهرة . وسمع صوتنا يهتف به ان أقدم إنها لك . .  
فكاد أن يقفز من الفراش ليبتزح المعصية . . لولا أن صغمت أذنيه قهقهات  
ساخرة ، وأحاطت بصورة حبيبته أشباح شياطين سوداء مفزعة ! فأغض عينيه  
يتعاشي الرؤية . . ووضع في أذنيه الإصابع حذر السمع ، فما هاله إلا ان  
ظل يرى ويسمع . . وظل يتعذب ويتلظى . .  
وأخيراً تداعت أعصابه المرهقة في غفوة مضطربة . . تمزقها أحلام محموم . .

\* \* \*

فتح عينيه على يد تداعب وجهه بجنان وصوت يهمس :  
- قم يا حبيبي فقد انتصف النهار . . .  
فأشرق وجهه بفجر هناء ، وقفز من السرير يضحك للسعادة ، وإذا به يسمع  
منى تسأله :

- كيف بت ليلك يا سعيد ؟

فارتعش وقد عاودته الذكرى ، ثم طرد أشباح الليل وأجاب :

- على احسن حال يا مناي !

وحاول أن يثور على روع أمسه . وأراد ان ينتقم من هول ليله . . فأحاط  
نصرها اللدن بذراع . . وادنى رأسها بيد . . واطبق على ثغرها بفم ملتهب ،  
ثم جذبها إلى السرير وقد هاجت به الرغبة الملحاح ، فانفلتت منه مطرقة هامسة :  
- ألا تحضر الشيخ اولا . . .

وإذا بالبواب يقرع باصرار ، فنهض يلعن مزعجه ، وإذا بصديقه سائق السيارة  
يناوله رسالة محتوية وهو يقول :

ما ان علمت أمك بفرارك مع منى حتى جاءني تلح وتستعطف واجبة  
ايصال هذه اليك . . . ولكم حاولت انكار معرفتي بمفرك ، غير انهاجزمت انني  
على علم بالمؤامرة ، وألقت إلي بالرسالة وانقلبت راجعة .

فشكر سعيد صديقه على ما تبشتم ، ثم كر عائداً إلى حبيبته بعد ما اغلق

الباب باحكام . فسألته مني عن الخبر فيما اجاب . بل مزق غلاف الكتاب  
وظفق يقرأ . . .

وادلهمت سمعته . . . وتالت على طاعته اوان قوس قزح ، وارتعشت يداه  
بشورة خفية ، فسقطت منه الورقة تهتز على الهواء .

وعادت مني تسأله عن مضمون ما قرأ بلبهة ، فما اجابها الا بنظر يضطرم بالجنون .  
وحاولت التقاط الرسالة عن الارض لولا . . . طلق ناري دوى في المنزل ،  
سقطت على اثره تتخبط في الدماء . . .

وادار فوهة المسدس إلى صدره ، ثم ضغط على الزناد من جديد . . . فدوى  
في المنزل طلق آخر ، القاه جنب حبيبته .

التفتت اليه والدماء تنزف من صدرها الجريح ، تصوب اليه عينين اشتعلتا  
بالالم والفرع والتسائل . . فأشار إلى الورقة وقد صبغتها دماؤها ودماه ، فأدنتها  
إلى وجهها بيد يهزها النزاع الاخير . . . وقرأت :

« تصلك رسالتي هذه بعد ان اكون انتهيت . . .

« فقد انتحرت هربا من الذل والعار . . .

« لا تتزوج مني . . . لا تتزوج اختك . . .

« لأنك ابن كامل نور من زلة لي في صباي . . . »

« امك »



## حسناء الترام

لن أذكر لك كيف ولماذا ، فما أنت علي بوكيل ! المهم أن تعلم أني ركبت « الطنبر » ذات يوم .. ماذا .. ؟ أعدت تتساءل ؟ ألا تعرف أن « طنبر » بيروت هو الترام .. ؟ بالله عليك لا تقاطعني كلما بدأت الحديث . فما الذي فعله في سهرتنا هذه إذن ؟ لئن كان الصمت من ذهب فالكلام من « اورانيوم » ! ركبت الترام ذات يوم من « البرج » الى « المنارة » . ولأكن أمينا علي الحق فأقول أني تعلقت به ، إذ كان علي عهدنا به مزدحما بالمخلوقات و كأنه علبة السردين حشرت فيها « الفراخ » بعنف وعناد . ثم حزمت شجاعتي و مرونتي وجسمي الهزيل القصير ، قبل أن أخطر بالدخول الى معصرة الزيتون الهائلة - أعني جوف « الطنبر » او الترام لا فرق ! حقا لقد كانت مهمة صعبة تستلزم خبرة عميقة في استراتيجية الكفاح وتكتيكه ، اذ مضيت اشق دربي بين الأجساد المتلاصقة المتلاحمة . فأدفع هذا و امر من تحت إبط ذاك ، واتلقى احدث الشتائم من فم ذياك . وشتائم بيروت كما لا يخفى عليك ، حية متطورة مثل ازياء نساء « باريس » ، يطلع عليك كل يوم بجديد منها وطريف ! اما انا فلم ترعني تلك الشتائم تنهال علي من كل حدب وصوب . ف لشاعر قد قال للناس ولي - لا بد دون الشهيد من إبر النحل ! و كان الشهيد متسعا لقدمي في قلب الترام ، قرب كرسي اقف إلى جنبه منحزأ ، حتى اذا ما نهض الجالس عليه احتلته بحرب الصاعقة . وبعد الكفاح البطولي العنيد ، حصلت علي ما كنت احلم به ، باستيلائي علي موقع استراتيجي هام ، بين متعدين تربعت علي احدهما عجوز منتفخة ، لكانها

اختزنت في جوفها كل ما تنفست في حياتها الطويلة من هواء . وفي هجرها كانت تجثم « صرة » ضخمة ، جالس عليها طفل اضخم منها ، فعجبت لمعجزات الدهر كيف تمت احداها بمرور تلك من باب الترام الضيق ، وادركت توا ان جارتي قديسة . إذ كيف تسنى لها لولا ذلك ان تشق الزحام بهيكلها الضخم وحملها الهائل ، وتصل الى شاطئها الامين على ذلك المقعد المحظوظ . بينما انا القزم الضئيل الجسم ، ابلت في الحرب شر بلاء ، حتي ظفرت على شبه متسع وقفت فيه على قدم ونصف . وشعرت بميل جارفي الى محاذة تلك القديسة ، فالتفت اليها مبتسما مواسياً مهنتاً ، اعزها بما فقدت في صراعها مع الزحام من شهم ، واهنتها بما حازت عليه في النهاية من نصر مبین . غير انها اجابت بكل بساطة ، انها من المناطق جاءت بيروت فركبت الترام مذ الصباح ، آن لم يكن فيه مخلوق . ولت فيه ، رائحة غادية معه ، تتفرج على بيروت من شباكه ، وتمتع حفيدها بمناظر العاصمة . وكانما ابتسامتي اغرت تلك « الغادة » ابنة الثمانين . فوقعت في حباتي . وشعرت بجسمها يتمدد على المقعد شيئاً فشيئاً ، حتي لاصق اجنبي في نداء . وتملكني الغرور وانا المس افتنان تلك الانثى بي - وهي انثى على كل حال - فنظرت حولي بتيه وخيلاء . لولا ان شيئاً من النفور وشيئاً من خوف هزه الناس عاد فطفي علي ، فابتعدت عنها قليلا ، واذا بي ارتطم بقطعة خشب . فالتفت في استطلاع وحنق ، لارى ان جارتي الثاني مخلوق طويل هزيل ، يجلس على مقعده بين الواح من الخشب وعدة سلال فيها ادوات وبضائع . فهداني التفكير الى انه نجان . ولم اجرؤ على سؤاله كيف تم له دخول الترام ، بعد ما سمعت قصة جارتي الضخمة . وكانما استطاع ان يقرأ ما كان يجول في راسي من تسأل ، اذ انفجر يشتم ويدمدم ، معلناً بطريقته الخاصة ، انه استقل الحافلة منذ وقت طويل ، في طريقه الى مكان عمله في « باب ادريس » . لولا ان الزحام حال بينه وبين الخروج ، فربض في مكانه لا يجيد عنه ، والترام يهتوق به بيروت عن اقصاها الى اقصاها عدة مرات ، وهو في مقعده ينتظر نصر الله والفتح .

ومضى « الطنبر » يهتز ويتهادى كقبلة النوري ، زاحفا بنا في شوارع بيروت ببطء سلخفاة ، يلاحقه عواء رتل من السيارات عرقل عليها المرور .  
وتذكرت فجأة يوماً من حياتي ركبت فيه الزورق البخاري . وكان هذا يصارع جبال الامواج في غرور . بينما كنت ومن معي على شفير هاوية . نهتز مع زورقنا في رقصه الارعن على غضب البحر . ونستعطف الله خوف النهاية .  
ذكرت كل ذلك والترام يرقص بنا في شوارع بيروت . فتساءلت هلماً ترى أي بحر يصارع؟ ولم أكن في حاجة الى جواب . فقضضة عظامه كانت تعلو كل ضجيج . والحق يذكر أني كنت خائفاً على رأسي من انفراط عقد العربية . لولا أن رأسي كان بين رؤوس ... فلا خير أن تحملنا الكارثة سواسية . وشق علي التنفس وسط تلك الكتلة المتراسة من البشر ، المهددة بي من كل جانب . ولكن قيل حقاً « عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » . فلولا المحيطين بي ما حظت توازناً في وقفتي تلك على قدم . أنا لا أقول اني كنت ثابتاً كالطود رسا . إنما كنت اميل مع الجمع ما مالوا اماماً ووراءه . فكأننا الموجه العارمة تعلو وتنحسر . او كأننا الفرد يركب ناقة ، فيهتز معها كلما خبت ، وكأنه منها على ارجوحة .  
وتذكرت وسط ذلك الضجيج مقالاً لا ادري متي وابن قراته ، يتحدث عن شاعر لا كالشعراء ، يهبط عليه الوحي في المكتظ من الامكنة والساخب من الاجواء . فبدأ لي ان احاول تقليده . خصوصاً وان شاعري كما وصف قصيره . ولم لا يا صاحبي . . الست من فصيلته قزماً !  
واهويت بمعول إرادتي على ارض افكاري حرثاً . فلعلي انبت منها عشباً .  
وتصيب رأسي عرفاً . ثم نجحت المحاولة . فتخيلت نفسي مع زمرة الحافلة فنناً تلهو به صرصر . غير ان الريح قست فأطاحت بالفنن الى استراليا . واذا به ... اي نحن - يصبح قبيلة من الوطنيين ترقص على قرع الطبول وتقر الدفوف ، كأنها الرجل الواحد ، امام الزعيم الساحر .  
واختلطت الصور في رأسي وتشابكت ، نتيجة موجة من الركاب الجدد

انقضت على الترام ، فتحولت القليلة الأسترالية الراقصة شيئاً فشيئاً ، الى حفرة  
من السمار في إحدى قرى لبنان ، يدبكون على لحن المجاوز وانغام الناي ، في  
نشوة من السحر اترعها الفناء . وبدالي ان جارتني في الدبكة صبية في عمر  
الوزود وحسن الربيع ، ترقص على التوقيع في خفة غزال ، وتميس على الاغان  
في رقة انسام الصباح . وكان ذراعها المتشابك مع ذراعي دافئاً حياً ، يهدده  
اعصابي في حنان ، فيثور دمي على غلبان . وكم كان جميلاً ان يعصف بهاحماس  
اللحن كلما اشتعل ، فتلقي بنفسها علي في لاوعي من النشوة ، ويحتك الجسدان  
في ثورة من نار .

واصابني من الاحلام خدر لذيذ . فنسيت الترام واهليه ، وعفيت عن عجائبه  
وآسيه . ثم ابتداء الضجيج يفرز اذني من جديد . وابتدأت تعي بعض ما يحيط  
بي الحواس . فشعرت بلامسة جسم جسيمي . وظننت هذا امتداداً لما فات من  
احلام . ثم نزعني عن بصيرتي غشاوة . فشككت حالا في نوايا جاري النجار .  
والثفت حانقاً مفروراً ، انها لمحااضرة بليغة في الآداب القهبا عليه . غير اني وجدت  
المسكين مازال على مقعده ، منكشاً بين سلاله واخشابه ، يهتز رأسه المخروطي  
مع اهتزاز الحافلة ، في انتظار الفكك من اسره والنهية من مطافه . فتحولت  
بفكري وبصري نحو العجوز ، وقد حسبت تلك اللامسة منها مناورة جديدة .  
بيد انها كانت من امرها على شاغل ، تستمتع بنزهتها في الترام على خير مايرام ،  
منهمكة في إلصاق جبينها وأنفها على زجاج النافذة بوضع مناسب ، يتيح لها رؤية  
بيروت للمرة العشرين . فأجلت الطرف حولي مستطعماً ، وإذ بي أجذباً بالقرب مني  
فناة وريانة الحسن ناضجة الانوثة ، ثارها الشهية تفوح عبيراً ، وجمالها الصارخ  
يتألق نوراً . كانت تقف على استحياء ، مطرقة برأسها البديع الى الارض ، بينما  
راح الزحام يدفع بها نحوي في عناد . وشعرت بنظرانها الفاتنة تتركز علي ،  
رغم ما كان يبدو عليها من عدم اهتمام بي او التفات نحوي . فهزت أعطافي  
كبرياء . . وتظاهرت بدوري أنني لم أنتبه لوجودها على مسافة مني مغرية .

أنا اعلم اني لست بمن تعشقه النساء . غير أن الهوى الحقيقي شيء وزمالة الترام شيء . فما ضرها لو روحت عن اعصاب مكدود ؟

تلك المخلوقات المكتظة بها الحافلة . . ما اروعها ! لقد بدأت احبها مذغدت مفيدة . فلولاها ما اندست الحسنة بي ، هرباً بمن هم شر مني واطغر جانباً . . تلك الحافلة الكسيحة المفككة الاوصال . . ما ابدعها ! فلولا رقصاتها المحمومة ما ترنحت تلك الغادة وارتمت علي . . ! لقد كنت لطيفاً جداً ، ولا ادري كيف حدث ذلك . غير انها هي التي اخبرتني به ، وهي تبتم وتعتذر عن اختلال توازنها المؤسف . هل حقاً كان ذلك مؤسفاً ؟ - اما بالنسبة لي فلا يقال ان للانسان من الحواس خمس . ما هذه السخافة ؟ إن لي الف نوع من الحواس . وقد تجمعت كلها آنذاك في تلك النقاط المحظوظة ، حيث كان يلتصق بي جسد الحسنة . ورحت اظاهر باللامبالاة وعدم الانتباه . بينما كنت ، والحق يذكر ، كتلة من احاسيس ومشاعر ، تثير كل موجة تسري في الزحام الرعشات في اعصابي المتوترة . وبدأت العن الترام . . ما له لا يهتز بشدة اكثر . . انسي اريد ان تقع كل لحظة علي . اريدها لي . . لي !! - ربما كنت في امتن حافلات بيروت ! وبدأت انقم على الناس . . ما لهم لا يتدفقون على الترام سيلاً . . اريد حافلاتي ارض حشر . . اريد فتاتي ان تلتصق بي اكثر واكثر اريد ان احتويها في اضلعي . . ان اذيبها في !!

واخذت الاحلام تختلط بالحقيقة . فشمرت بالغادة تقرب آه . . تلك الاشعاعات الدافئة المنبعثة من جسدها - ما الذها ! ذلك البخار الحار . . لقد اخذ يسري في دمي ، وبدأ يكوي شفتي !! واحسست بحرارة دمها . . يبدو ان شر ايننا اتصلت فأخذ يصب في حشاي . وذاك الدوي يملو كل ضجيج . . اهو تحفق فؤادي ام قلبها ؟ - لم اعد ادري . . .

وظللت اظاهر باللامبالاة . فالترام مزدهم بالبشر . والبعض يحب ان يمس انفه فيما لا يعنيه . . وكنت اشتعل . . آه . . لو كنت وياها وحدنا . . .

وبدأت اتخوّر من الواقع .. فتخيلت نفسي على ضفاف غدير ، أفتش  
الحشائش الطرية ، واستظل بالأشجار اليانعة . كنت اتوسد ذراعها .. فقد  
كانت ممي هناك .. حسناً ! واخذ بدل يشدو على لحن المياه . فنظرت في  
عينها ، وابتسمت . فتضحكت مرحاً ، واخذت تغني معه . تلك المخلوقة  
الرائعة .. . لقد كانت روضة محاسن . لم أستطع أن أنتظر نهاية أغنيتها ، فقد  
كان في يلهب . ولم أملك إلا وأطقت به على ثفرها أرويه . وكان ذراعي  
يهتصر خصرها . وكان صدرها الناهد يحطم صدري !

ورجعت إلى الواقع . كان صدرها يحطم لا صدري ، بل الكتف مني والظهر .  
فوددت لو أشد بها إلى .. . ووددت لو أقبلها ! ولكن الحافلة كانت مليئة بالناس .  
فعدت إلى الأحلام انشد فيها العزاء .

وتخيلت نفسي في غرفة مظلمة . الريح تعوي خارجاً ، والمطر يعزف على  
زجاج النوافذ ، وكأنه يستثير الطبيعة بلحن القتال . لم أكن أرى شيئاً في الدجى .  
حتى أنفي لم أكن أراه . غير أنني كنت أشعر . كنت أشعر بالكون كله  
في أعطاني .. . كنت أشعر بالحياة ! ملاحم الاغريق .. . معلقات العرب .. .  
سفونيات الغرب .. . فلسفة الصين .. . صوفية الهند .. . وجودية رومة - كل ذلك  
كان في دمي .. . ولا عجب . فقد كانت بين ذراعي .. . الحسناء ! لم أكن أراها ،  
بل كنت أشعر ! كنت أشعر بأنهار الخو تنسكب في دمي فتسكره . كنت  
أشعر بأثار الجنة في يدي ، وبخورها في رثي . وكنت أحس النور كله في قلبي .  
فقد كان يجيا !!

ورجعت إلى الواقع . لقد كان علي أن أعمل شيئاً . ووددت لو أحقق بعض  
أحلامي . غير أنني شعرت بجرمة . فالتفت إلى الورا . واذا بها ذاهبة . ماذا ..  
أذهب الحسناء هكذا .. . دون أن أكلمها ، دون أن أتفق معها على موعد ؟ !!  
فانتفضت أطرد عن أشباح الحبال وأكداس الركاب . وتحفزت أحاول اللحاق  
بها . غير أن صوتاً رتيباً هادئاً خرق سمعي :

— اسمعوا لي يا شباب !

لقد كان قاطع التذاكر . فمددت يدي الى جيبي لاجراء حافظه النقود .  
ماذا ... ؟ إنها ليست هناك ! ربما نسيته في البيت . . . كلا ! . . بل كانت معي .  
وكان فيها كل معاش الشهر ! وأخذت أفتش جيوبي كلها باضطراب وحنون .  
لم يكن هناك شيء ، . . وسطعت الحقيقة أمام عيني فجأة — لقد كانت حسنائي  
لصّة !!





## عذاب

الجبال تصطبذب بالرياح العاتية الهوجاء، والسهول تموج بالضباب الكثيف القائم .  
وهناك ، في تلك الزنزاة الضيقة ، جلست وإياه ، تنصت لامواج الرياح الجاححة  
وهي تتكسر على جدران سجننا الشاحخة البنيان . وكان خليل يلتف بعباءته  
الممزقة ، التي كانت تهتز معه كلما لسعته إبر البرد القارس . أما انا فقد كنت  
أحدق في وجهه باصرار ، متسائلاً عن سر تلك الرعشة المتراقصة عليه . فقد كان  
صاحبي كمن ضاع رشده ، في سهومه الشارد ، وتكاثف الغم في بصره ، وتلون  
الاسى على وجهه . ووافق فجأة من شروده ، ليشمل تحت نظراتي الفضولية العادة ،  
ثم أطرق من جديد . فخيّل إلي انه صيفرق في غموض افكاره قانية ، ولم استطع  
الصبر على ذلك فتنبهت ، ولما فشلت في انتزاع انتباهه ، ملكني الضيق والعنق  
عليه لتجاهله إياي . فوجدتني أصرخ في وجهه بعنف و غضب .

— ابن انت يا خليل ! وماذا تفكر ؟

ولذلي ان اراه ينتفض تحت وقع كلماتي كمن لدغته عقرب . فقد شعرت  
آنذاك اني تأرت لنفسي ، وانتقلت منه لاختفائه عني ما يشغله . غير ان العطف  
مالبت ان تسرب الى قلبي ، وتدفق في دمي نائراً فياضاً ، عندما تدحرجت على  
وجهه قطرات كبيرة سكبته عيناها . وراعني ان اسمع صوته ينشج في البكاء ،  
وان ارى جسده يهتز مع شقيقه وزفيره . فقفزت الى الباب محاولاً استدعاء

« المأمور » عليه يحضر الطبيب ؛ غير ان صاحبي اشار لي ان ارجع . فالتفت اليه ، لأجد رأسه يتهاوى على كتفيه ، وهو يتهالك الى الارض ، وقد اسبل عينيه ، واضطرب تنفسه ، وشحب لونه ، وراح في غيبوبة نوبة عنيفة ، ثارت فيها اعصابه المرهقة ، ومضت تهبت بجسمه الهزيل الذي اخذ ينتفض كالعصفور الذبيح .  
لم اكن قد رايت من قبل مثل تلك النوبة . فاستبد بي الجزع على رفيقي الطريح . وتملكني الاسفاق من ان تكون نهايته . وسرعان ما كنت على الباب الحديدى اقرعه بقبضتي ، واهزه بيدي هزاً وكأني احاول اقتلاعه . ولم يطل بي الامر حتى هاج السجن وماج . وترا كض السجناء الى ابواب ( قواويشهم ) مطلين عبر قضبانها يتظاهرون ما الخبر . وجاءني المأمور شامخاً متوعداً وقد وضع يده على مقبض مسدسه كمن يخشى امراً . ولما لم يجد على الباب سواي ، غاضت الحشية من وجهه ليحل محلها الغضب والامتسداد وهو يزجر :

— ما بك يا ابن اللئام ؟ لقد وضعناك امس مع خليل في هذا الزندان ، عقاباً لكما على المشاغبة . ترى ، أجبئنا بمشاغبة أخرى ! ؟

وماتت الكلمات على لساني امام تحمته الحارة تلك ، فأشرت الى الداخل ، حيث كان رفيقي لا يزال يهتز وينتفض في غمرة نوبته . ورفعت نظري الى وجه المأمور منتظراً أن أرى الشفقة تكسوه . غير أني رددت بصري بخرقة ، فلقد كان ذلك الخلق يهز رأسه امتسكاراً وهو يردد .

— ما هذه الحيلة السخيفة ! أنظنان أنكما تخدعاني بهذه اللعبة لاخراجكما من الزندان ؟ إنكما لن ترجعا الى « القاوش » حتى تعودا عن إضرابكما المضحك !

— ولكن ، يا أفندي ، لا دخل لهذه القضية باضرابنا عن الطعام ، الأتراء يكاد يقضي تحت وطأة نوبته ! ألا تحضر له الطبيب ! ؟

- ليس به شيء ! ليس به شيء ...

ومضى ذلك الانسان في مسيله ...

ورجفت إلى صاحبي والالم يجز في نفسي المهيضة الجناح . فوجدت انتفاضة  
يسكن وقد تلاشت حدته ، وتنفسه يرجع إلى حالته الطبيعية شيئاً فشيئاً .  
فسرني عني بعض الاضطراب ، وأخذت أدلك يديه الباردين بمثابرة ولطف ،  
وأنا أناديه بين الفينة والآخرى بصوت مرتعش ، لأعلم ان كان قد عاد اليه وعيه .  
وما لبثت حر كته أن سكنت ، إلا صدراً يعلو ويهبط ببقايا العاصفة . ثم  
فتح عينيه بوهن ، محاولاً اغتصاب ابتسامة ماتت قبل أن تولد . فقفز قلبي بين  
ضلوعي فرحاً . فقد استرد وعيه . و كأنه ولد من جديد !

ورغبت اليه أن يخبرني إذا كان يعرف النوبة قبل اليوم . فترقرقت الدموع  
في عينيه وهو يهمس : « انها لأول مرة ... ولكنها لن تكون الاخيرة ! »  
فأطرقت ... لقد أدركت ان في الامر سرّاً . ولم احاول ازعاجه بفضوليتي .

\* \* \*

كان الزندان الضيق كقبر يحتوينا أحياءً . فلا الشمس تعرف سبيلها اليه ،  
ولا الهواء النقي يجسر على الاقتراب منه . ولولا جلجلة الرياح البعيدة ، لنسينا  
أننا من أهل هذه الدنيا . وكان يشاطرنا المسكن جيش من الصراصير السوداء ،  
يهزف لنا موسيقاه « العذبة » صباح مساء ، ويحذف على جسدنا كلما اشتاق  
لما عبتنا ودغدغتنا ، او طاب له التعبير لنا عن عواطفه العميقة . وفضلا عن تلك  
الصراصير « اللطيفة » ، كنا نسمع بجوار مئات من البراغيث والقمل ، تنهيج  
أساليبها الخاصة في بثنا تحياتها و صداقتها . فتقبلنا كلما سنحت لها الفرصة . وما  
أكثر ما كانت تسنح . وتسجل على أجسادنا تذكاراتها الخالدة ...

واتقد حظينا بشرف النزول في وادي الصراصير والقمل ذلك ، نتيجة لاضرابنا  
عن الطعام . فقد كنت و خليل في احد قواوئش السجن بين عشرين من أمثالنا ،  
وكان قد مضى على توقيفنا أكثر من ستة أشهر ، دون أن نمثل أمام المحكمة .  
ولم تكن تهمتنا بالشائنة . فقد قبض على خليل في حادث مشاجرة مع المختار ،  
وقد اعتقلت أنا أبان المعركة الانتخابية بتهمة الشغب والاخلال بالأمن . ولطالما

قدمنا « العرضيات » إلى المدعي العام نلتبس إخلاء سبيلنا . ولطالما رجوناه  
إحالتنا على المحاكمة . غير أن صرخاتنا لم تكن لتذهب إلا في واد غير ذي قرار ،  
ونظف نحن كما كنا ، بيننا وبين العالم حجاب . فمللنا الجدران الخرساء ، ومللنا  
القضبان الحديدية القاسية . بل مللنا الحياة دون نور ودون حرية . وأخيراً هاج  
بنا اليأس وعيل الصبر ، فأعلمنا الاضراب عن الطعام حتى الموت ، أو الافراج  
عنا ، أو محاکمتنا بسرعة ! وما ان علمت الادارة بتصميمنا حتى غضبت وأرعدت  
ومضت تكيل لنا التهديد والوعيد . ثم بدأت تنفذ منه شيئاً ، فأفردتنا في الزنزانة  
عبرة لبقية السجناء ، وأندرتنا « بالقلق » ان تابعنا « شعبنا » المزعوم . وأمام  
هذه المعاملة المحمومة ، عاهدنا النفس على المضي في إضرابنا حتى النفس الاخير ،  
لنفهم الذين لا يريدون أن يفهموا ، أن الانسان ليس بهيمة تساق ، ولا مطية  
تسلس القيادة .

وجاءت صاحبي النوبة دون ميعاد ، فبعثت ما انتظم في رأسي من النيات .  
ووجدت نفسي فريسة للقلق والاضطراب . لأن استمرار الاضراب لا يعني  
بالنسبة لحليل في حالته تلك ، إلا الموت المحتم الأكيد . إنني أستطيع متابعة  
الاضراب وحدي . ولكن كيف أمكن من افئاع رفيقي وهو العنيد الصلب ،  
على العودة عن الاضراب لوحده ، وقد بدأناه سوية . فعمت على النكوص  
رفقا بحليل وخوفاً عليه ، لا رهبة للادارة وخوفاً من عقابها . وهكذا عدنا الى  
الطعام . فسر مدير السجن ، وظن ذلك امثالاً منا لأوامره ، فتأدى به الغرور  
مزيناً له أن أساليبه المبتكرة ، هي آية الزمات في الافئاع ووحيدة القرن في  
الحكمة . ولم يلبث أن بعث يستقدمنا اليه ، حيث انفجر في وجوهنا - دون  
سابق انذار - بمحاضرة عجيبة ظل ينهال بها علينا مدة ساعتين ، مشتركاً بيديه  
ورجليه وأنفه الضخم وساجبيه الكثرين ، في التعبير عما كان يصرخ به صوته الاجش  
بطرق ملتوية . وكانت محاضراته الطويلة العريضة تلك ، تتلخص في كلمتين دالتين  
هما : أن نشاغب مع الجميع الا معه ، ونقاوم السماء والارض الا حضرته . لأنه

رجل ليس كالبشر، وهو يقول ذلك سفةً منه علينا كي لا تقع تحت سيطرته، لأنها لا يمكن أن تتركنا أحياءاً! . وانتهى من فيض بلاغته وبيانه ، بالاعلان لنا بطريقة رزينة جداً ، انه اصدر أوامره « السنية » بارجاعنا الى « القاوش » ، حيث عين خليلاً « خوزمتشياً » عليه . فتمتمنا بكلمات غير واضحة ، ظننا ( سعادته ) مدحاً له وتقريظاً ، ولم تكن في الحقيقة سوى شتم له وسباب . وهكذا خرجنا من لدنه تشيعنا نظراته الزائفة بالتيه والغرور ، ورجعنا الى « القاوش » الذي لم يكن سوى احدى غرف السجن المظلمة العفنة ، لا تفضل على الزرانة الا بسعتها واكتظاظها بالسجناء والموقوفين . ولم تكن الوظيفة السامية التي منحها الصديقي سوى رتبة خادم للقاوش ، ولقد كانت تلك المهنة ذات امتياز حقاً . لأن صاحبها يستطيع ان يتقاضى عشر سبعمارات اسبوعياً من كل سجين يخدمه . وهكذا استقر بنا المقام ، ومضى صاحبي يعمل في القاوش ليل نهار . فينظف الغرفة ويرتبها . . . ويفسل الصحن ويلبي الطلبات . . . ويجمع السجاير . وكنت أرقبه وهو يقوم بهام وظيفته الجديدة ، فأبتئس لحاله وأرثي . كان واضحاً عليه أنه ليس ممن تعودوا خدمة الغير . ولكن ما كان يدهشني منه أكثر من أي شيء ، هو تلك السحابة الحفية من الامم المتلبدة في جبينه وحول فمه . وكانت تكفهر أحياناً وكأنها نهم بالامطار . ولكنها لم تكن لتطر . وذاك ما ظل يزعجني دوماً . لان الدموع التي لا تجدها من المآقي مخرجا ، ستراكم حتماً في القلب حتى تفيض او ينفجر . . . . وتلك هي الكارثة ! ولقد صبح ما توقعته ، فلقد عاودت صاحبي النوبة غير مرة . حتى اضطررنا ان يعرض نفسه على طبيب السجن ذات يوم وقد حضر في زيارة قصيرة . فذهب اليه يقدم رجلاً ويؤخر الثانية . وما أن بدأ يشكو له علته حتى أخذه ( الدكتور ) بيده يتظاهر بحس نبضه . وماهي الاثانية حتى أفلتها وهو يقول : ليس بك شيء يا بني . فقط لا تحزن ولا تبتئس ، وشرح صدرك ما استطعت . وعاد نخليل الى القاوش يتعثر بخطاه . وما كاد يقص علينا خبر الطبيب حتى ابتسم أكثر السجناء ،

فالغبي يطلب من البلبيل الحبيس أن يفرده . وهل يملك الا ان يجزن من كان رهن  
القيود ! وكيف يطلب من السجين أن يشرح صدره ، ويسر قلبه ، وهو الحبيس  
المقيد ، وهو الحي الدفين في قبر الالم ! وما هو الذي يسر النفس ويشرح الصدر ،  
أهي تلك الجدران القاسية المكفهرة ، أم هي تلك القضبان الحديدية المتراصة تحجب  
النور وتمنع الهواء . فالعقوبة القذرة ، والرطوبة النتنة ، والاهانة القاتلة . . . تلك  
هي البيئة الفريدة التي تفسر السجين بوحشتها الخرساء ، فهل يملك إزاءها الى  
الابتسام صببلا .

\* \* \*

- خليل العبد ! خليل العبد !  
ومضى الحاجب يجلبجلب بالداء ، وما هو إلا سجين أعجب الادارة فانقته ،  
وعلمته وصاياها العشر في احتقار الآخرين ، ثم عينته حاجباً يستلم مفاتيح الغرف  
ويتحكم في المساجين .  
- نعم سيدي ! أمر ؟ . . .

صاح خليل وهو يقفز الى الباب متسائلاً عن سر تلك الدعوة ، ويتطلع الى  
وجه الحاجب بشيء من الخشية وكثير من الفضول .  
- لا شيء . مواجهة !

تمتم الحاجب بضيق وتبرم ، وكأنما لم يعجبه التحدث مع من دونه مقاماً .  
ثم صرخ فجأة وهو يفتح الباب .  
- عجل ! اخرج ! قلت لك مواجهة !!!

فانساب خليل من الباب مضطرباً ، ومضى وراء الحاجب راجف القلب  
يحسب للمواجهة تلك الف حساب . ومضت وراءه نظراتنا تشبهه بالتساؤل  
والاحسد . فالمواجهة في حياة السجين أمر جلل ، وهي نعمة كبرى يرفل في  
خيراتها البعض ويحرم من غيبتها الاكثرون . انما الشباك الذي يطل منه على  
العالم الخارجي ، لينعش قلبه بصوره وأخباره . وأخذنا نتخيل رفيقنا يمضي الى

باب السجن، ليمس يده من بين قضبانه الحديدية يصافح زائر « المجهول » ويتناول بيده الثانية الهدايا والزواويد . بينما « الاومباشي » يبرق ويرعد بصوته الشبيه بجمجمة الطاحون :

- عجل ( ولا ) خلصنا ! هل ستمضي النهار كله على الباب ؟ !!  
وقطع علينا استرسال تخيلاتنا صوت خليل . نعم خليل نفسه الذي كنا نظنه على باب السجن يواجه ويضحك ويتسلم الهدايا ، جاء يصرخ بصوت مرتعش بالنضب :

- يا حضرة الحاجب ، تعال افتح لي باب « القاوش » .

- لماذا لا تواجه يا مخبول ؟ !

- لا اريد ان اواجه ! افتح لي الباب ، أرجوك !

- خاطرك ...

فدخل خليل يتمتم ويدمدم ، وقد اضطرت عيناه ، وانقلبت سخته ، وتقلصت عضلات وجهه ، وأخذ يرتعد كورقة في مهب الريح . فلمست فيه بوادر العاصفة ، وتقطعت نياط قلبي إسفاقا عليه وهو الصديق الامين ، فعزمت على الترفيه عنه ما استطعت . ونهضت فأخذت بيده إلى ركن قصي انتبذناه ، حيث هضيت أسرتي عنه جهدي ، واسمه من الفول ما يذيب جبال الموم . غير أنه ظل زائف النظرات ، مكفهر الوجه ، وكأنه لا يعي من كلامي شيئاً ولا يفقه له معنى . وإذا به يرفع رأسه فجأة ليحدثني في وجهي هنيهة بعينين تجمد الدمع في مآقيها ، ثم تم بصوت يسحق الجلود :

- سلام ! لم أتعرف عليك إلا في السجن . ولست أعرف حتى الآن عن ماضيك شيئاً . كما أنك لا تعرف عن حياتي خيراً . ولكنك أخي بعهد الله . لأن الاخلاص الذي ظهر منك لم أره قبل في مخلوق قط .

فتدحرجت على وجهي دمعتان وأنا أسمع منه هذا القول الوفي ، فلاحظ ذلك وهم بالكلام ، وإذا بالحاجب يصرخ على الباب .

- خليل خليل ! يقول لك المختار أنه أسقط عنك كامل ادعائه الشخصي لدى المدعي العام !

فالتفت الى صاحبي لأهنته ، وقد شاعت في نفسي الغبطة ، غير أنني وجدته يتلوى كمن ضرب بسوط . فحيرني منه ذلك وسألته .

- ما بك يا خليل ؟ ألا تعلم أن هذه بشرى تفتح لك باب الحرية ؟ !  
فأجابني بصوت يتمزق الماء ونقمة :

- لقد كان على الباب مع امي . جاء ليواجهني سوية ! !  
فمجبت لقوله وانكرت عليه فعله . وقد لاح ذلك على محياي جليلاً  
فلاحظه واردف :

- سأحدثك يا صاحبي بقصتي ... سأحدثك .

\* \* \*

- على بعد عشر كيلو مترات جنوبي بعلمك ، تربض قرية بريثال ، مستندة الى كتف الجبل الشرقي الأشم ، ومعتصمة بمسالكه الوعرة وجروده المنيعه ...  
كان خليل يهمس بصوت خافت متقطع ، وهو يجرد في اللاشيء ببصر زائف ، وكأنه ينظر إلى بعيد ... متخبطاً الحواجز والشواسع ، الى حيث المروج الخضراء توشع سفوح الجبال ، والقمم الشامخات تسحب السماء . ثم التفت إلي فجأة ليقول :

- بريثال ... هل تعرفها ؟ !

ولما احتيت وأسي إشارة الايجاب ، اندفع يتكلم ساهما سارداً ، وكان صوته ينساب الى اذني ضعيفاً وكأنه يأتي من بعيد ... من الماضي ...  
من الذكريات .

- انها قريتي بريثال . ولدت فيها لعشرين عاماً خلت . وكان والدي مختار القرية . وكانت والدي حسناءها . لا زلت أذكر ذلك الحنو الدفاق الذي كان يهيطني به أبوي . فقد كنت اول ثمرة لزواجهما السعيد . ولقد ظلت الثمرة الوحيدة .

وفي ازمة القرية كنت ألعب مع أترابي ورفصائي ، حتى إذا لاح لي غريب مضيت أو كض وأتعثر إلى والدي لأخبره لاشئاً بقدمه . وكم كان يسرني ان يربت على كتفي مبتسماً وهو يقول : « قده إلى هنا يا بني . . . وقل له أن المختار يريد أن يراك ! » فكنت أندفع إلى الغريب لأمشي أمامه بفرور ، وأنا أنظر حولي بخيلاء ، لأتلقى نظرات الغيرة والحسد من أبناء القرية . وكم كان يرضي غروري أن يجلس الدرك أو الزعماء في مجلس أبي إذا مروا ببريتال ، ليأتي شيوخ القرية وشبابها يسألون عليهم . ويسألون خاطر المختار .

وهكذا نشأت على النعمة الوفيرة والجاه الرفيع . إلى أن كانت حوادث فلسطين ، وعصفت بالشعوب العربية ثورة الحقد على الأئمة الصهيونيين . ففتطوع والدي مع جيش التحرير ، ومضى إلى الجهاد بقلب عامر بالايان . وقد ودعته القرية بكاملها عندما فارقتنا ، وقد تبارى الشباب بالعتابا يجدون بها حميته ، وتبارت الصبايا بالزغاريد الهازجة يباركن نخوته .

ووجدت نفسي بعدئذ رجل البيت ولما أبلغ الرابعة عشر من العمر ، فقبطت نفسي على هذه النعمة . وأرضى كبريائي العلم بأني ابن ذلك الرجل العظيم الذي تجله القرية ، وبأني أصبحت نائبه في البيت وممثل له أمام الناس . ولكن ذلك السرور الذي شاع في نفسي لم يكن إلا وهماً زائلاً وسراباً كاذباً . فسرعان ما اجتمعت القرية لتنتخب مختارها الجديد ، ثم نجح « أبو حسين » منافس والدي القديم وعدوه الالذ . وأخذت الحسرة تحز في قلبي كلما رأيت غريباً يتجه إلى بيت « أبي حسين » بعد أن كان يتجه إلى بيتنا . وأخذت الغيرة تنهش فؤادي كلما امتلأ مجلس المختار الجديد بالزوار ووجهاء القرية ، أو هتف المناادي يدعو الاهلين إلى بيت أبي حسين لأمر ذي بال . وهكذا وجدت نفسي بين عشية وضحاها ، وحيداً في الحياة إلا من أمي . وقد تحول احترام القرية إلى بيت غير بيتنا ، وأحاط الجاه والرفعة بشخص غير والدي الحبيب .

غير أن الأمل المستفيض ظل يدغدغ نفسي بعودة أبي من الجهاد ، يحمل لنا

المجد الطارف فوق النالد ، لنفقا الحصرم في عين « أبي حسين » ، ومنتزع منه  
المخترة والوجهة . وانتهت حوادث فلسطين على ما يعرف الجميع ، فعاد البصود  
والمتطوعة ، وتعالت زغردات النساء في كل مكان تحتفل برجالها الراجعين .  
وشعشت بيوت الآفلين من الجهاد بالفرحة والحبور . . . إلا بيتنا ، فقد ظل  
في ظلام داس ، تخيم عليه وحشة الاسى ومرارة الانتظار ، لأن أبي لم يكن  
مع الراجعين . وأحاطت بي نظرات القوم منها المشقة ومنها الشامة .

وتصاعدت همسات الناس الى اذني تقول :

- انه لم يرجع . انه قتل في المارك .

.. لم يعثر له على أثر . ربما كان أسيراً ، ربما عاد بعد حين !

فكنت كلما رنت في أذني هذه الكلمات ، أركض الى البيت لأدفن رأسي

في صدر أمي وأنا أنشج في البكاء ، وأسائلها خلال شهيق وزفير .

- أماه ! هل صحيح ان أبي قتل ؟ . . . هل هو ميت ؟ ! .. أم هل يعود ؟ !

فتنجني على رأسي تداعب شعري وترويه بدموعها وهي تهيب :

- لا أدري يا بني . لم يفت عليه الوقت . أرجو الله أن يعود !

- واكنه لم يعد . . ! ولم نعد نسمع عنه أي خبر . ورحنا نتسقط أخبار فلسطين

من الشارد والوارد . فكان الكل اذا سألناهم عنه مطوا الشفاه ولووا الاعناق

وأجابونا بعلامة استفهام كبيرة . وبعثنا الى محطة الشرق الادني نذيع تسألنا

الملحف . فكنا كمن ينادي القبور .

وكرت السنون الطوال تترع لنا كأس الهوان وتسقيننا حتى الثمالة .

فعرفت مرارة اليم وأدركت مذلة الحرمان . ولشد ما كان يغيظني أن أرى

أبا حسين يتحكم بنا فعل موتور ، وكأننا هو لا يسعد الا باذلائنا ولا ينعم الا

باصلائنا نار الشقاء .

وكرت السنون من جديد . . . فنسي أهل القرية والدي وقد مضى على

ضياع فلسطين من الاعوام خمسة . ولم يعد يذكر المختار القديم الا ثلاثة : أمي

وأنا ، والمختار الجديد . نعم ، لقد ظل أبو حسين يذكر والدي ولا ينساه . لأنه لم يشتر لحظة عن اضطهادنا وكأنه يخشى ان أنزعه المخترة يوماً وأنزعها منه . وكأنما طاب له ان ينهج في اذلالنا شر ما ابتكرته خياله الشيطانية من اساليب ، اذ اثنتى عن طريقه القديمة في تحقيقنا المكشرف . ومضى يتودد الى امي بالخاف وإصرار ، ويتظاهر نحوي بالمطف والاشفاق . لقد كانت امي حقاً لا تزال جميلة ساحرة . فهي لم تتجاوز بمد عامها السادس والثلاثين . بل لم يكن منظرها ليوحى الا بأنها في الربيع الخامس والعشرين . ولقد طالما راودها الكثيرون وطلب يدها الحاطبون . فمدت الجميع حرصاً علي وضناً بي على الدخلاء والفاصبين .

وأخف المختار في ملاحظته امي وما ارعوى . فما راعني منها الا ان بدأت تميل اليه وتستجيب لظرائره . فجن جنوني وهاج بي الغضب ، فكدت اقدم على جل الامور . لقد نجح الخبيث في احكام سهمه فأصاب منا في الحشا مقتلاً . وطفرت يوماً وقد أعمانى النبط والغضب ، أخبط في البرية خبط عشواء ، فالتقيت بفريري خارج القرية وحيداً ، وثارت بي الضفائن الحبيسة والنقمة المستعرة ، فهجمت وقد انفجر غضبي ، أنهال عليه بقبضتي ورجلي وعصاي . . . ولم اتركه الا طريحاً يتلوى على الحضيض .

لقد شكاني النذل الى الدرئ فقبضوا علي . وها انا لا زال موقوفاً في السجن منذ ستة اشهر دون ان تحال قضيتي على المحكمة . ولا يمدبني في قفصي هذا الا الشك . . . الشك القاتل الرهيب . ترى ماذا يفعلان الآن وقد صفا لها الجو وخلا الرقيب .

\* \* \*

التفت خليل الي فبجأة يسألني وقد اضطربت عيناه . ارأيت يا اخي سليم . لقد أصاب العين الهدف . فاهتزت مشاعري لبؤسه القاتل . وحاولت أن أسري عنه بقولي :

— إنها ظنون لا صفة لها يا صاحبي . لا تطلق خيالك العنان . . . إن بعض  
الظن اثم !

— ولكن ، لقد حضرا اليوم لي واجهاني . . . لقد كانا على الباب صوية . . .  
لقد كانا يبتسمان !

— خليل . . . لا تدع الظنون تسلك بك موارد الشطط . لقد جاءت أمك  
به ليستقط عنك ادعاه . انها تحبك . . . أمك .  
فأطرق برأسه يتلوى وكأنا قولي سمر عذابه . وطال به الاطراق فيحاولات  
أن أسبر غوره وقلت :

— لماذا لا تقدم « عرض حال » جديد تلتمس فيه اخلاء سبيلك وقد امتنع  
الادعاء الشخصي ، لعله يفرج عنك فتذهب لتتأكد بطلان ظنك .  
فهز برأسه موافقاً وهو على نار الغضى . وسرعان ما كنت اخط له المعروض  
باعتكاف ولهفة . وما ان ذيله بتوقيعه حتى قفزت الى الباب ادفعه الى المأمور  
راجياً منه الاسراع في تقديمه .

وارخى الليل على الكون سدوله ، فتمددت على فراشي وقد جفا النوم  
عيني ، ورحت استعيد في خيالي قصة صاحبي البائسة . فأدر كت مدى الالم الذي  
ظل يرزح تحت ثقله طيلة الشهور الاخيرة . ومضيت ارجو الله الا يحقق شكوكه  
السوداء . ويجرر النعاس على عيني ملاهته . ثم غرقت في لجة النوم العميق .  
وعلى خيوط النور المناسبة من كوة القاروش استيقظت . وطرق مسمعي همس  
السجناء وهم يروون لبعضهم الاحلام ، وحسب هواهم يفسرونها . فنهضت اوقظ  
خليلاً من غفوته . واذا به مستلقياً على فراشه يحدق في السقف بعينين حمراوين  
كأنه لم ينم ليلته . وسألته عن حاله فتمتم بكلمات غير واضحة ، ثم شرد من جديد .  
وابى اليوم ان ينتهي . فامشيد بي الضيق والتبرم . كنت اود الخلاص من  
تلك الوجوه الجاهمة التي اراها صباح مساء . كنت اود الخلاص من ذلك الجور  
الحائق التتن . ونقمت على الناس جميعاً وانا اتطلع الى رفاقي الذين مللت

ورؤياهم وسئمت احاديثهم . وعلى الباب تسمر نظري يرصد الرائح والغادي ، الى  
ان اطبق الليل على الارض يمد طول العناد .

واحتفل الكون بولادة يوم جديد . . ثم جاء « المأمور » يصرخ الى الباب  
منادياً صاحبي خليلاً :

— لقد وافق المدعي العام على اخلاء سبيلك مقابل ايرة تدفعها كفالة .  
فقفزت الى الباب وقد استفزني الطرب . واذ بي اسمع خليلاً يتحم بصوت  
كسير :

— ومن أين لي الحسين ليرة ؟ ! !

فتحوت نخوة المأمور وصاح وهو يقتل ساربيه باعتزاز وزهو .

— ألا تعرف أحداً في هذه البلدة تستدين منه ؟ إني على استعداد لارسال  
شخص يحضر لك المبلغ .

فاختطفت من أحد السجناء قلماً مضيت أسطر به كلمة لأحد معارفي من  
التجار أرجوه فيها إقراض المبلغ . وما ذهب بها « الافندي » حتى بادرت  
رفيقي بالتهانئة المستفيضة . وما لبث المسكين ان اصبح منتهباً لنظرات الفيرة  
والحسد تنهال عليه من كل جانب . بينما أحاط به الجميع إحاطة السوار بالمعصم ،  
ومضوا يحملونه التواصي والرسائل إلى أهلهم وأصحابهم .

وظل خليل ساهماً شاردأ لا يعي من القول شيئاً . ثم رفع رأسه فجأة وكأنا  
ثاب اليه رشده ، وسعدق في وجهي بأسف وهو يقول :

— لن أنسى عطفك ما حييت يا سليم . وسأزورك كل أسبوع عساي أني  
بعض مالك علي من الفضل العميم . أو ربما قضى الله امرأ كان مفعولا .

وعاد الرسول قبيل المغرب بالنقود . وما ان تمت المعاملات القانونية حتى  
نهض صاحبي يودعنا واحداً واحداً . وما انتهى إلي حتى عانقني بحرارة وجعل  
يسكب دمع الانخوة السخين . ثم انتزع نفسه من بين ذراعي ، ومضى لا يلوي  
على شيء . وسرعان ما كان الباب يصطفق وراءه ، ليشيعه وقد انطق الى دنيا

## الحرية والنور .

\* \* \*

كانت الريح تعوي وراء الجدران الخرساء ، وكأنها قطيع ذئاب عصف بها الجوع وشاقتها الدماء . فتلفت حولي أتفقد الرصفاء ويا لهم من رصفاء . لقد كانوا يتضون أوقاتهم بالحب والنسيمة ، يكيّدون لبعضهم بعضاً ، ويضخم القوي منهم حق الضميف . وكأننا انطبعت قسوة السجن على أكبادهم ، وتجسدت نغمته في مؤامراتهم . فبجعلت اجبل الطرف حولي باحثاً عن الطيب الامين . واعيانني البحت فتوجهت بفكري إلى خليل ، وتذكرت خروجه من السجن منذ يوم ، يحمل على عاتقه ثقل هم دفين ، ويتطلع الى المدينة بشك يتطلب اليقين . وكنت اتساءل هل ارى وجهه ثانية . فقد تعودنا نحن السجناء ، ان من يخرج من لدنا لا يدبر وجهه الى الورا قط . وبينما كنت في افكاري تلك ، اذ بضجة ترتفع في الباحة واصوات تصبح :

- سجين جديد ! سجين جديد .

فنهضت الى الباب استطلع الخبر ، واذا بي ارى نفسي وجهاً لوجه مع خليل . . . ! نعم خليل نفسه . . . خرج من السجن ليهود بعد يوم واحد . وما راعني منه الا ذلك الوجه المتقلص الصارخ الباكي ، وتلك العينان المورمتان تكادان ان تخرجا من محجريها ، وهما ترسلان يمناً ويسرة نظرات زائغة لاتستقر على شيء . فطفقت اناديه وقد انفطرت نفسي جزعاً . واذا به يحدق في وجهي كالمجنون وهو يصبح :

- ماذا تريد ؟ ! لقد أثبت ولن ارجع بعد اليوم !

وما ان احتوته الغرفة حتى اخذت بيمينه وانا اسأله بلهفة صارخة :

- خليل ! ما بك ! ماذا فعلت !

فانّ أنينا ينفطر له كبعد الصخر الاصح . ثم تتم بصوت خافت يتمزق

— عندما خرجت من لديكم أمس ، لم أجد سيارة استقلها الى بريتال .  
فجئت رجلي على المسير . فلم اصل القرية الا وقد هبط الليل على الدنيا بكل كفه  
كنت اعلم ان ما من احد في القرية ، سمع بجزر الافراج عني . فأردت مباغتة  
امي لأعلم ماذا تصنع في غيابي . وتأخرت حتى نام الجميع . فانسلت الى  
البيت فتعت جناح الظلام . ودفعت الباب فوجدته غير موصد . فانسبت الى  
غرفتها دون اي حركة . وما ان تعودت عيناى الظلمة ، حتى رأيت ، ويالهول  
ما رأيت . . . رأيت أمي المصونة في الفراش ، ومعها رجل . . . اجل ، رجل تعانقه  
ويعانقها وقد أعقبا على وضع ساذ . . ! ونذكرتها تقف على باب السجن مع  
« ابي حسين » وهما يتسمان . فشار الدم في راسي وجن جنوني للشرف الذبيح والعار  
الاثيم . ولم أملك الا واستللت سكيننا حادة انهات بها على الاثيمين تمزيقا ونقطيعا .  
وأسكرتني رائحة الدماء تنفر منها على وجهي ويدي ، وأطربتني حشرجتها  
وهما يافظان النفس الاخير ، فمضيت اضرب وامزق ، حتى لم يبق في جسديها  
مطعم لسكين . ثم اندفعت الى القنديل اخبئه لأتشفى من منظر جثتيها الدنستين .  
واذا بي ارى ويا للفظاعة . . لقد كاث ابي !!!

وانفجر خليل يبكي ويضحك بهستيريا وهو يصرخ :

— اجل . . ابي . . ابي . . لقد عاد يومها من اسرائيل بعد ان قضى هذه

الاعوام سجينا فيها لقتله احد كبراء الصهيونيين . . .

ثم رفع المسكين راسه يحدق في بنظرة مجنونة وهو يصبح :

— ابي الذي انتظرته طيلة هذه السنين . . .

. . . بدل ان اعانقه ليلة عودته قتلته . . .





## حَفَقَاتِ قَلْبَيْنِ

عزيزتي بهاء :

بدم القلب أخط هذه الرسالة ، اتحمل لك من مهبطي بضعا... وتوحي اليك  
من أشواقني ناراً ...

لا أكاد أصدق اننا افترقنا ، واكن ... أين أنت ... وأين أنا !!!  
لا أكاد أصدق لولا ... ثورة الحب في أعماقي ! لهيب الحنين في شفتي ! !  
لا أكاد أصدق ، لولا ... روعي العطشى - إلى سحر عينيك ! إلى حنان  
قلبك ! ! إلى دفء خديك ! ! !

يا ملاكي الحارس !

بالأمس انتزعتني السفينة من لبنان ، فانتزع لبنان مني القلب والروح !  
ومضت تنتهب بي البحر إلى مصر ، وكنت وحيداً ... وكنت معي !  
أجل ... ! كنت أراك بين الجفن وحبّة النظر ... كنت أحسك في دمي ...  
وفي شفتي ! !

وكنت وحيداً ... أمد ذراعي فلا أطوق إلا الهواء ! وأطبق بنفسني على  
اللاشيء ! وأناجي وأنادي ولا جواب ! ! .

وكانت هي الذكرى ...

هل تذكرين ؟ . . .

حرس الصنوبر في قرينتنا « حردين » ، حيث كنت أصطاد لك الفراش وتجمعين  
لي الزهور . . . وكنا صغيرين ...

هل تذكرين ؟ . . .

تلك الامسية الحلوة في ظلال القصر على ضفاف غدِير .. حين كان القمر  
بدرًا يطل علينا من وراء الجبال .. كنت اعزف لك على العود لحن « علي  
غصون البان » .. و كنت تهمسين مهي بكلمات الاغنية .. هل تذكرين إذ  
انقطعت فجأة عن العزف ونظرت اليك وقد هزني الحنين، فأطرت إلى الارض  
وقد اصطبغ خداك بدم الورود وفضة القمر . وكانت القبلة الاولى ..

هل تذكرين ؟؟

هي عزائي .. هي عذابي .. الذكريات ا

لقد عشت عليها من بيروت إلى اسكندرية ، وكانت الباخرة تشق عباب اليم،  
بينما كنت أنظر إلى الافق .. فأرى « حردين » كمثل السراب ، وأرى تصرنا  
فيها يستند إلى حرش الصنوبر ! كنت اراك .. في وجه الشمس المشرقة على  
البحر .. فأناجيبها .. اناجيبك ! وكانت الشمس تبتمسم ، فلقد اسكر غرورها  
ان تنوب لدي عنك !

و كنت اراك .. ارى خديك في ورود الشفق ! ارى عينيك في غور

البحر ! ! ارى شعرك في حلك الليل ! ! !

يا حياتي ..

أحقت أصبحت في مصر وانت لا تزالين في لبنان ! ؟ احقت أمهاني الاجل  
وقد افتقرت عنك ! ؟ ولكن .. لقد افترقنا لئلا نلتقي ! ! فما جئت مصر إلا لأتابع  
دراستي في جامعاتها .. كما اكون لائقاً بك - يا عيوني ا

يا بهائي ..

انخط لك هذه الرسالة من « اسكندرية » وقد وصلتها قبل ساعة . وبعد  
لحظات أستقل القطار الى القاهرة ..

سأكتب لك كل اسبوع .. سأكتب لك دائماً ! ! ! فأجيبني ! اجيبني على

كل رسالة ! !

بحق عهدنا المقدسة .. اجيبني .. دائماً ! !

لن اهدي لك قلبي في الحتام . . . لأنه لا يزال معك ! فتحسس به قرب قلبك

احبك . . .

الى الابد

كامل بهنودي

بيروت في ٢ تشرين اول سنة ١٩٤٥

#

ومضت تقلب الكتاب بين يديها ، وتهمد تلاوته وتستعيد وحيه . وكان  
الدمع ينهمر من عينيها ، والحياء والشوق يلهب وجنتيها . فقد كان هناك . . .  
بين سطور الرسالة ! كان هناك . . . بنفسه الحساسة وروحه الرقيقة وقلبه  
الحنون ! !

وفجأة ، طرأت على بالها فكرة سوداء أظلم لها محياها الحزين . انه في مصر  
وكم في مصر من غانيات ! فرما أنسته احداهن ابنة عمه بهاء ، وجميع ما بينها  
من عهود ووثائق . . .

وعادت الى الرسالة تطورها بالقبل والدموع . وعادت الى الذكريات . . .  
فأرت فيما يرى الحالم نفسها يوم كانت طفلة ابنة اربع سنوات ، تستظل برعاية  
والدها الامير سليم بهنودي . لقد كان والدها رجل « حردين » والقرى المجاورة ،  
فاق الجميع بالشجاعة والشهامة . ولكنه قتل . . . قتل ذات يوم وهو يدافع عن  
مسكين هاجمته عصاة لصوص . فلم يبق لها غير عمها خليل . . خليل الذي  
اصبح بعد موت شقيقه آخر أمراء بني بهنود !

وكفلها عمها حادياً على رعايتها بجنانه الدفاق . فلم تشهر بوحشة في محيطها  
الجديد . لاسيا وقد وجدت رفيقاً للهو طفولتها البريئة . . هو ابن عمها كامل ! كان  
صغيراً لا يتجاوزها الا بعامين . وكان وحيداً لأبويه . فوجد فيها الصديق  
ووجدت فيه الصديق !

وهكذا أمضت معه سني طفولتها يسرحان ويمرحان في حديقة القصر وحرش

الصنوبر . بينما الاسنة في الجوار تردد :

- انها خطيبان مذ الرضاعة !

واجتازت بها السنون مرحلة الطفولة . فتحولت الصداقة البويثة الى حب طاهر . وطفقا كلما انتهيا من المذاكرة والدرس ينطلقان الى الحقول والاحراج مع اصراب البلابل وامواج الفرائش ..

وكانت القبة الاولى ... وكان المرى ١٠٠

أما السنون فراحت تكرر وتفر .. وانتقلت العائلة إلى بيروت كما يتابع كامل العلم . ثم أتى يوم ضاقت فيه معاهد بيروت بالشاب فقرر الرحيل إلى جامعات القاهرة ...

وكان الفراق ... وكانت دموع وآهات ...

وها هو يكتب لها من اسكندرية مقسما عليها ان تراسله . وهل تملك الا أن تفعل . ؟ لقد نكأ بجروح قلبها بكلماته ومراميه ، فهي على نار من الهوى لاهبة . وتوجهت بأفكارها الى مصر تتساءل ...  
أين اضحي الآن ، وماذا ترى يفعل ...



ومضى القطار يطوي الارض طيما ... ويتبع الوهاد والسهول في طريقه الى القاهرة . وفي احدى عربات الدرجة الاولى كان يجلس شاب وسيم الطلعة اسمر الجبهة ، تلمع عيناه بالذكاء وينطق هندامه بالثراء . وكان يحمل بين يديه جريدة لبنانية يتظاهر بالقراءة فيها بينما عيناه الرماديتان تحقدان فيما وراء المرئيات . وكانت على وجهه تماوج العواطف حمراء صفراء وداكنة .. وبينما هو في جلسته تلك ، اذ بيده ترتفع بجر كفة لا شعورية لتتجسس جيباً صغيراً يقع قرب فؤاده . وتناول من الجيب بطاقة على جانب منها رسم يمثل قلبين يجمعهما كيوييد ، وعلى الجانب الآخر صورة باقة من الورود وبانة الحسن . وفتح البطاقة فاذا بوجه حورية غيداء يطالعه من الداخل . وتراءت عيناه تابثانه

المهرى المشبوب، بينما راح ثفرها يفتر في ابتسامه فتانة . . فتنهد عن كيد هري،  
واندفعت إلى عينيه قطرتان من نار . . وضحكك عجوز تجلس بقربه . . وتلملت  
صديقه كانت تراقبه . . فصحا إلى نفسه وقد تملكه الحبل . ثم عاودته ثورة الحب  
فهوى بشفتيه على الصورة يقبلها ، وكأنه يتحدى الناس جميعاً .

وتعالى صفير القطار يمزق الفضاء ، ثم اهتزت العربات وكأنها تلفظ النفس  
الآخر قبل أن تهد حركتها ، فقد وصلت إلى محطة القاهرة . ونزل المسافرون  
يتدافعون إلى سيارات الأجرة ، بينما راح الجمالون يتدافعون إلى البضائع . . واختلط  
الحابل بالنابل ! أما كامل فكان في سيارة تحترق به شوارع المدينة نحو منزل عينه  
للسائق في شارع سليمان جوهر بالدوقية . وما أن وصلت به إلى المكان المنشود  
حتى ترجل منها واندفع يقفز على درجات السلم بنشوة وحماس . فقابله صاحب  
المنزل بعاصفة من الحفاوة وسيل من الترحيب . ولا عجب فهو صديق قديم  
زامله أيام الدراسة في لبنان وسبقه إلى مصر بسنة واحدة .

جلس الصديقان يضحكان ويثرثران ، فكامل يتحدث عن لبنان وأخباره ،  
وجليسه « عادل البسام » يتحدث عن مصر والجامعة . لقد كان عادل ابناً  
لمائلة لبنانية مترفة ، بعثته إلى مصر ليستوفي من العلم قسطه ، فجاءها فرحاً عليه  
يجد بعيداً عن أهله المسرح لانطلاق شبابه . وبعد سنة من الكفاح المستمر أخذ يدلي  
بتقريره إلى صديق الطفولة والشباب . أما كامل فكان يصفي إلى هذر صديقه بأذنين  
فاتها السمع ، لعله بأن جل مغامرات عادل ليست سوى من بنات خياله الرحب .  
وأم يكن يملك إلا أن يتسم كلما تباهى محدثه بترامي إحدى ملكات الجمال على  
قدميه ، أو تدله محصنة ذات خدر في حبه .

وتكشفت لكامل حقيقة عادل مع الأيام . فرأى فيه الشاب الخجول الحيي  
مع النساء إذا حضرن وفارس الغزل الوهمي إذا غبن . أما هو فقد مضى يعب  
من بحر الجامعة قطرات العلم بظماً لا يرتوي ، ساكناً مع صديقه شقته في شارع  
سليمان جوهر . .

وذات اسمية ندية الحنان ، وقد انهمك الصاحبان في استذكار دروسهما ،  
قرع الجرس وجاءت دلال . . . فما كاد عادل يعلم بحضورها حتى دفعه الجبل  
واستقزه الطرب وهو يقفز الى الباب يستقبلها بجرارة ويشد على يدها في نشوة .  
ولما رأى نظرة التساؤل في عيني صديقه قدمها اليه قائلاً بزهو :

— الا تعرف دلال ؟ . . وكيف ؟ انها ابنة الصائغ الشهير عصام الجبار  
البناني الاصل . . وهي خطيبتي نتيجة حب متبادل . .

فتطلع اليها كامل وهو يمد يده مصافحاً . فرأى في شعرها سنابل القمح يوم  
الحصاد ، وتبين في عينيها لون السماء في يوم صحو حار . . . اما قدما المياس  
فكان غصن بان وخذها باقة ورد . . وانزعه من تأمله صوتها الجرسى وهي  
تقول لخطيبها ضاحكة :

— لم تهرفني على الافندي يا عادل .

فتبسم وهو يجيب بمرح

— إنه الامير كامل بهنودي ، جاء يدرس الزراعة في الجامعة ، وأبوه من  
سراة لبنان ووجهائه .

فضغطت على يده وقد شاقها اللقب . وانحنيت امامه في حركة تمثيلية وهي  
تغمغم :

— تشرفنا أفندم

وجلس الثلاثة يتجادلون اطراف الحديث . بينما راحت دلال تخالس النظر  
الى وجه كامل وهو لا يوليها التفاتاً ، وأخذت تكثر من الكلام وترفع صوتها  
بالضحك لتسترعي انتباهه ، فما أفادها ذلك بخير . . . وإذا بها تنهض فجأة لتقول :

— ألا نذهبون إلى منتزه جزيرة الشاي في حدائق الحيوان ؟

— فوافق عادل بجماس ظاهر . واستقل الثلاثة سيارة مضت بهم إلى المبتغى  
وفي قلب كل منهم نار . .

رمى كيوبيد سهمه ... فتأوت على فراشها مغمومة الفكر جهرية القلب .  
وأحست بدمها يهتف بها في عناد :

- دلال ... إنه عريس أحلامك المنشرد !!

ويلها ... أبعد خطبتها لعاذل تنكث العهد لتخونه مع صديقه !! ولكن هو  
الحب ... إن سلطانه على قلبها لعظيم ! كامل ... لقد فتنها بهدوئه ... لقد سبها  
بجمالها . . لقد سحرها بلقبه !! فهل تحفظ العهد أم لنداء القلب تستجيب !!  
وعاندها الرسن فظلت تتلوى على فراشها في عذاب . ولازمها السهاد من  
الليالي العديده ...

ولم تعد تذهب إلى منزل خطيبها المفتون . فقد طفتت تهرب من لقاء كامل ...  
وذاك شأن المحب يسمى . تشوقاً للقاء حبيبته حتى إذا ما أزفت الساعة تمهيب ونكص  
على أعقابها . وكيف لدلال ألا تفعل ذلك وهي التي تعلم أنها ارتكبت باشتهاه  
كامل إدآء . أما هو فقد ظل خلي البال من أمرها لا يشغله إلا دروسه وذكرى  
ابنة عمه . إلى أن جاءه ذات يوم كتاب ... ولم يكن من بيروت بل من القاهرة .  
وما أن مزق الغلاف حتى طالعت أحرف من نار ...

« كامل ... »

« عندما قابلتك لم أعلم ما يجيبني لي القدر . ولكن ما حدث قد حدث ...  
وهأنا أكتب إليك أشكرك إلى نفسك ! كنت أنظر إلى عاقل نظرتي إلى  
« صديق عزيز . إلى أن رأيتك ... فمألت علي كيانتي وسلبتني العيش الهني !  
« حاولت عبثاً أن أطرد عني الداء ... فتجنبت رؤيتك ، وأقنعت نفسي أنني  
« من أمري على وهم ! غير أن الداء عاودني مستضرباً . فأيقنت أن لا مفر ...  
« أحبك !! أبل أقولها والحبل يمزقني ! أقولها والغيظ من قلبي يشود بي !  
« ولكن هي الحقيقة أقول ... أحبك !! فتعال إلي في منزلي غداً الساعة

« الرابعة . . . تعال قبل أن تحرقني النار ! !

« واسلم يا قاتل لضحيبتك :  
دلال النجار»

\* \* \*

فأفزع ما قرأ . . . وراءه ما انتهى إليه ، لكنه ذهب على الموعد . . . وكانت  
في المنزل وحيدة ! ! فراحت تستعلي تارة وتستعطف أخرى ، وراحت تحتال  
في الكشف له عن مفاتيحها عليها تستفريه ، غير انه قال بصوت مخنق :  
- كفك مناورات يا دلال ! إنك خطيبة عادل . . . ولن أخون صديقي . . .  
فتلوت على نار . . . ورفعت إليه طرفاً ناعساً ينضح بالشهوة وهي تجيب :  
- لم أعرف الحب قبل أن أعرفك . فإن كنت وافقت على خطبتي له فما  
ذاك الا رفقا به وقد كاد أن يجن . أما الآن فلكل ثوبه . . . وما أنا  
الا لك ! . . .

- دلال . . . لا تترددي في مهاوي الشطط . . . ما أنت الا لعادل . . .  
ان ثقته بك لا تحدد ! فلا تضعي فيك ثقة مفتون ! !  
فابتسمت في سخرية قاسية . . . وكشفت عن ساق كأنه الرخام ، وتقدمت  
نحوه تتمايل في رغبة وتمس في اغراء :  
- مالنا وللناس . . . تعال إلي . . . يا حبيبي ! !

فلمس في نظرتها بوادع عاصفة . . . وشعر في عقله بريح اشمئزاز . . . وأحس  
في جسده ناراً تجارة ! واذا بيده ترتفع دونما ادراك الى الجيب الصغير تستخرج بطاقة .  
وفتح البطاقة ينظر الى تعويذته . . . صورة بهاء ، ثم التفت الى دلال وقد صبغ  
الالم وجهها بالزعفران يهمس في اطمئنان :  
- لست بالخلي يا فتاة ، ان لي في لبنان خطيبة ، ولست بمن ينكث عهداً !

فنهشتها غيرة، ومزقتها بسد... والتفتت اليه تعسج :  
- ومن هي هذه المحظوظة ؟

وشعر بما يعتمل في قلب صاحبه . فأراد أن يسري عنها بقوله :  
- أنظري اليها... الى طهارتها الرائعة... الى حسنها الملائكي... انها  
ابنة عمي بهاء ! ألا تستحق العبادة !؟ ستكونين لها أختاً... وسأكون لك  
شقيقاً ! فارجمي عن طبشك ، وعودي الى من يرواك - صديقي عادل !  
لقد طعنها بزرق النصال . فجاش كيانها بالنقمة المستعرة . غير انها سكتت  
على مضض وغغمت بمرارة :

بارك لكما الله... وشكراً على نصيحتك !

غير أنها أضمرت الانتقام . ومضت تتحين الفرص للانقضاض . ومضت  
الايام وهي على نغمتها في غليان . لم تياس من عادل رغم ما بدا لها منه . غير  
ان هناك... في لبنان تكمن منافستها . فكيف لها ان تبلغ منها المرام !  
وذهبت ذات يوم الى منزل عادل في زيارة . فاصطدمت بالخدام وهو يخرج  
بسرعة من الباب . ومن هول الصدمة سقطت من يد المسكين رسالة . فالتقطتها  
تقلبها بين يديها مستطلعة . واذا بها من كامل الى بهاء . فاضطرم وجهها بالدم  
الزائر . والتهب في قلبها الجرح الدفين . فتصورت كلمات الحب والهيام تحملها  
الرسالة عبر البحر الى غريمها البعيدة . وتصورت مدى سعادة تلك بما تستلم . فضج  
وأصفا بطبول الغيرة والتهبت عيناها بيريقي الانتقام . ومضت بالخدام تستغويه  
بالأصفر الرنان حتى وافئها على ما سألته...  
ولم تصل الرسالة الى بيروت...!



وجد كامل في طلب العلم حتى حاز في الصف الاولية . ولم ينس بهاء النبي  
لأجلها اجترح المعجزات في سعيه ، كما تستطيع ان تفخر به بين قريناتها . لم  
ينسا وهي ملاكه الحارس . بل واظب على الكتابة لها كل اسبوع ولقد وصله

منها عدة رسائل تضطرم بالشوق والوفاء . ثم انقطعت عنه اخبارها .  
وظلت الايام تزحف دونما توقف . . .  
لم ينقطع عن الكتابة الى لبنان بيت الاهل 'وجده . فلماذا يبخل الأهل  
عليه بالمراسلة ! وبهاء . . . اليس من بينها من اليهود ذمام ! ؟  
وعذبة الشكوك . ترى هل نسيت وده ؟ ام هل طراً على الأعبة من  
الدهر عادية . ؟

وأضناه الوجد . وتسلى الى جسسه الراهن داه . . . وما كادت السنة المدرسية  
تنتهي ، حتى طار الى لبنان على أجنحة الشوق وفي نفسه صراع . . . يتحسب لما  
سيروى الف حساب . وما أن وضع قدميه على أرض الوطن حتى انطلق الى  
« شارع الحمراء » يطرق باب ذويه . فترامت الام على صدره ضاحكة باكية .  
وعانقه الأب وهو يمنع دمه ان يهسي غزيراً . وكان عيد وكانت افراح . . . لم  
تم ! اذ التفت فجأة الى امه يسألها عن بهاء . . . فأطرقت وانفجر الأب يلعن  
ويدمدم !

لقد اختفت بهاء . . . ولم يعثر لها على أثر !  
فهاه الخبر القاصم . وراى على وجهه وجوم . ثم ابتدا الظلام يلتهم النور في  
عينيه . وتداعى كدوحة حطمتها الريح . . . ! وعاد طفلاً . . . وراح ينشج في البكاء .  
فانحنت الام على أذنه هامسة :  
\_ انها غلطتك !

فانتفض استنكاراً وهو يدمدم :  
\_ وما الذي فعلت لأجزى شر جزاء ؟ . .  
فربت على كتفه بحنان وكأنا أدركت خطأها في استنفار غمه . ثم لم  
تملك الا ان قالت :

\_ لقد قسوت علينا يا حبيبي . . ولم يصاننا منك في الستة أشهر الاخيرة  
اي كتاب .

فما صدق سمعه . إذ راعه ما انتهى إلى أذنيه . والتفت إليها يسأل واجفأماً خورداً  
- أنا لم أبعث لكم برسائل ؟ . . . إنك لا ريب واهمة . بل أنا من يحق له  
أن يعتب . أنا الذي لم أستلم أي رسالة منذ ستة أشهر .  
فتضاحكت قائلة :

... دعك من المزاح الآن يا بني ...  
ولم يكن الامر بالمزاح . . . فلقد كان حقيقة ما قال وقالت . حقيقة مؤلمة  
رهيبة . . . إن في الامر لسراً ...  
و ضرب جبينه بيده فجأة . . . فقد انهتكت له الستر وبان السرء فجعل ينتم  
بنقمة واشمئزاز :

- إنها هي . . . تلك الافهى .  
وأراد العودة الى مصر فوراً فما أقر والداه فعله . فظل يذوي ويذوي . . .  
كالتنديل أعوزه الزيت . وما أوشكت السنة الدراسية أن تبدأ حتى استقل الباخرة  
إلى مصر وهو على لهيب . واستقبلته القاهرة كما تستقبل أي نكرة يطرق أبوابها .  
وذهب توا الى الخادم يستنطقه فأقر بالأمرة :

- هي دلال من كادت له وأغرت الخادم بالنقود كي يجبس عنه الرسائل .  
فانطلق الى دلال وقد حاجته النقمه . واشتاق الى جيدها الابيض بين يديه  
يعتصره . وتلف على تمزيقها بأظافره . غير أنها امرأة . . . فكص على أعقابها  
ولما يبلغ الجانية .

وعاد الى الجامعة يفرق نفسه في الدرس عله ينسى . . . فأضناه الجهد وآذاه  
الوجد ، فاستبد به الهزال . ولازمته حمى خفيفة . . . وهاجمه سعال جاف .  
وصعب عليه التنفس وقسا عايه الداء . . . فمضى ينفث من صدره القطع الجراء .  
انه السل . . . في آخر أدواره . . .

أدرك أنه على شفا الماوية فابتسم . . . ابتسم وقد مزق رثنيه السعال المتواصل .  
ابتسم للخلاص من الفانية .

غير ان أصدقائه حملوه الى مصحة « دار العلاج للدكتور جالانز » في حلوان .  
فأطاعهم وهو وهم على يقين من النهاية ، وهناك انتدبوا للعناية به خير ممرضة .  
وانقلبوا راجعين محضرون قصائد وثائق يوم يموت . . .

\* \* \*

كانت الحياة تناسب من رثنيه مع المهثات الداميه . فقد أعياد داؤه الأطباء .  
رغم جميع الجهود . ولم يعد من أمل الا في تأخير الساعة . . . ساعة الموت .  
فهناك . . . كان يستند الى احدى نوافذ المصحة يومه ، ليوزع مع النظرات على  
الطبيعة ما تبقى من حياته . وكانت الاشجار الممتدة على مسرح بصره ، أشجاره  
في اصفراره وذبوله . فهواء الحريف حطم منها الاغصان وأسقط الأوراق ،  
والغيوم الصفراء أصلتها الرعشة وأولتها الجهوم . وبينما هو ذات يوم في وقفته تلك مع  
الحريف اذ بجر كة غير اعتيادية تخش في هشيم المصحة ، يتبعها مريض جديد  
واكبه نفر من ذويه . فرفع الى الجمع نظراً أذوى الضناوره ، يستعرض الراكب  
الجديد في قطار الموت . واذا بالدهشة العاصفة تلطم رشده ، فلقد كانت هناك  
شبهتها . . . بل انها هي - بهاء ! اراد ان يندفع اليها فما أسعفته قدماء ، و اراد  
ان يناديها فهاجمته نوبة من السعال الحاد . . . وكانت تقف مشدوهة تنظر اليه ،  
ثم اندفعت نحوه فجأة . . .

وكان لقاء . . .

ونسي الناس والمصحة والداء وهو يحدثها بسفر عذابه ، ثم التفت اليها على  
حين غرة يأل : وأنت . . . أين كنت يا حياتي .

فحدثته عما نال منها انقطاع رسائله ، وكيف ماد بها الصبر فسافرت الى  
مصر تبحث عنه . . . وتوجهت حال وصولها اقاهرة الى دار عادل ، حيث  
التقتها دلال فزعمت لها أن كامل صاحب غانية أجنبية ساح وإياها الى اوروبا ،  
فغلبها اليأس وقصدت كوبري قصر النيل تلقي بنفسها في النهر . . .  
وحدثته كيف التقطها أحد السراة وقد كان يتنزه مع عائلته في زورق في

النيل ، وكيف اعتنى بها عندما علم بأنها غريبة الدار ، فحملها الى داره في ضاحية المعادي ، حيث اعتنى بها مع عائلته الى أن شفيت فأحلوها الدار ابنة معززة . . . وأصيب ابن لهم بداء الصدر فحماوه الى المصحة وكان اللقاء . . . كان كامل ينصت للقصة مرهف السمع حتى اذا ما انتهت أدمعت عيناه وهو يقول :

— لقد فاتني ركب الحياة فهلا رجعت الى لبنان ، عزاءاً لو الذي انا  
فأجابته بصوت يسيل رقة وحناناً :

— لا تياس يا حبيبي فداؤك الحب والحب الدواء . . .  
وعكفت على رعايته حادبة متفانية . فما أدهش النطس إلا شفاؤه . . .  
وطارا الى لبنان عصفورتان تتناجيان . . .

\* \*

رفعت اليه عينها الناعستين تتساءل :

— وماذا سندعوه يا كامل ؟

فانحني على الصغير يداعبه وهو يقول :

— سعد ! ما رأيك بهذا الاسم ؟

فضحك الجمد وهو يتحسس شاربيه ، وزغردت الجدة بنشوة ، بينما تألق وجه  
الطفل بابتسامة ملاك . . .





## كبرياء

بسط الليل على الارض وشاحه الاسود ، ففارت في حللكه بقايا أضواء تاهت  
عن مغيب الشمس . و كأننا الهدوء امتنفر النسيم من الرياض فهب يسكر الأجواء  
بعرف الزهور . وتمادى الى الآذان لحن الاغصان مختلطاً بأناشيد الامواج  
- انها آية . . . تعرفها صيدا كل أمسية من ربيع !!  
خرجت الى شرفة منزلي الكائن في ضاحية عين الحلوة ، أتملى من نشوة الليل  
ملء مشاعري ، وأمتنشق رَوْحه سعة رثي .

كانت أشجار الليمون تنبسط على مسرح البصر و كأنها جموع العذارى في  
هيكل إغريقي ، بينما راح القدر يطل عليها من وراء الافق ، حبيباً لولا استعلاء  
الخاودا ، وأفلتت مني نظرة نحو الجنوب ، أرجعت نفسي الحاملة الى الواقع المرير  
تلك الخيام المهلهلة ، المتناثرة في ظلام الليل على غبراء من الارض ، و كأنها  
كشبان الرمل في بيدا - انها مساكن من راموا الجوار فأسكنناهم من الديار  
العراء !! وبدانزل المشردين ذاك يبث السكون الف آهة من نار ، بينما لاح  
لهمني شبح ينسل منه الى . . . لقد شعرت أنه يتوجه نحوي ، سارياً في حلك  
الليل الصموت الثرثار ! وما اقترب مني حتى تبينته وصحت :  
- ما الذي جاء بك يا خالد ، في هذه الساعة المتأخرة ؟

فلم يجب . بل قفز متسلقاً الشرفة و كأنه اللص ، ووقف أمامي جامداً  
و كأنه التمثال قد من صخره فأشرت اليه أن اجلس ، والدهشة تجبس عن لساني

النطق . ومضيت أرقبه بعيني موجس شراً . فقد خيل إلي أن به مس .  
نظراته الزائفة ، أوصاله المترعدة ، وقفته الساهمة الصموت - كل ذلك راح  
يفصح عن أمر ذي بال . وجلس أخيراً على طرف كرسي ، ثم أطرق تحت  
ثقل هم خفي . وعلى جبينه تماوجت رعشات ، وعلى وجهه تصارعت أحاسيس .  
وإذا به يرفع رأسه فجأة ليصعد آهة حرى ، ويحدق في وجهي بإصرار غريق .  
حتي اذا ما رأى صنحة التسأل سطرها العطف على محياي ، فتحفه بصيبة ومرارة  
وراح يتكلم بصوت مخنق أبح :

- أراك ترثي لحالي ولما تعرف الخبر بعد . ويديك ! ما اتى بي اليك إلا  
السعي وراء صديق أبته السر . انك تعرفني يا هذا ، وتعرف أبي الحاج التقي .  
ابي . . . لقد رضعت محبته واحترامه مع اللبن . لا زلت أذكر قرينتنا في  
فلسطين ، حيث حبوت ودرجت وترعرعت . هناك . . . كنت أشعر أنني  
في وطن . الاوض الطيبة ، والمياه العذبة ، والسما الخانية . . . كل ذلك كان  
لي . كان جزءاً مني و كنت بضمناً منه . وبساتين القرية الغنية . . . كان والدي  
يملك منها القدر الوفير . لا زلت أذكر احترام القرية لبيتنا ، ففيه وجاهة  
موروثه ، وفيه مجد طارف . عمي قضى شهيد ثورة سنة ١٩٣٦ ، وقضى معه  
أهل لي وأنسباء . أما والدي ، فقد كان مثال الوطني الطر ، يهب الاموال  
لثوار ، ويستنفر الجميع الى الجهاد . ولولا عاهة تقعد به ، لنفر في طليعة المحاربين .  
كان يحذب علي أمماً وأباً ، فأنا كل ذريته ، من زوجة قضت فأقام علي عهداً لا  
يتزوج . لا أذكر أنه حرمني يوماً من متاع ، أو قصر علي في عطاء . بل لا أذكر  
أنه ضربني يوماً أو قطب في وجهي جبيناً . فيالها من ذكريات . . .

وأرسانني إلى المدينة أنهل من روافدها سلسبيل العلوم ، ولم يبخل علي برفده .  
فنشأت منظوراً موفوراً . أنعم في بجموحة . وأعيش على سعة . وبدأت  
الكوارث الاقتصادية ترهق والدي في كهولته . وما أقرني علي ما اعتزمت عليه  
من ترك المدرسة ومساعدته في اعماله . وبدأت حوادث فلسطين . . . فشعرت

بما لوالدي مع الثوار من اتصال وثيق . وازدت الالتحاق بالوطنيين . فمارض  
بشدة . وصرح انه يناضل عني وعنه . بل ذهب إلى ابعد من ذلك . اذ أرسلني  
الى جامعة بيروت أستقي منها العلم . ثم حدثت الكارثة . . .  
الحرب الاهلية . . . تدخل الجيوش العربية . . . قوافل المشردين . . .  
الهدنة . . . التقسيم . . . و كنت بهيدا عن ساحة المعركة . لا ادري ما قعد بي  
عن الجهاد آنذاك . ربما كان تتابع الحوادث بسرعة افقدني الجنان .  
وابتدأنا حياة جديدة في مخيم عين الحلوة . هي حياة الذل والبأساء . أملاكنا  
في فلسطين سطا عليها العدو . وصدقات « الاغاثه » لا تقوم بأود انسان . ولم  
أجد عملا . . . ماذا ؟ . . . أقبل ما عرضوا علي من اعمال في . كاتب هيئة الامم  
او شركات الاستعمار ؟

كلا لن ادخل معسكر الاعداء . . .

وقست علينا الفاقة : الخيام المهلهلة . . . انها وقود اللظى إذا ما استعر الحر  
وأنياب الزمهرير اذا ما استشرى القر . لا زلت أذكر يوماً عصفت فيه الريح  
ضارية ، فاقتلعت خيمتنا من الأوتاد ، بينما انفتحت السماء كأنها الميزاب ،  
تسكب علينا المطر بمازجه البرد . أشرفت يومذاك على الموت . وقضى في الخيم  
عشرات .

ولاح لوالدي ان يتاجر مع عرب اسرايل ، فمضى يكثر اليها من الاسفار ،  
متخطياً الحدود على غفلة من الحراس ، يحمل الى فلسطين اللحم والبيض وغيره ،  
ويرجع منها بالكثير من الريالات . فتحسنت أحوالنا بعد ضيق . وتربعنا في  
بسطة بعد فاقة . الى ان تكشف لي الليلة سر . . . انه والحق لفظيع . فقد كان  
ابي يتجسس لحساب اسرايل . . .

التفت الى محمدي بدهشة واشمزاز ، فما راغني ، لا لطفة من الدماء على  
ثوبه . فحججه بنظرة استنكار واعجاب وانا أسأل :  
- وماذا فعلت يا خالد ؟

فأجاب والالم والنقمة والضغف والقوة على وجهه في صراع :  
- انه ابي . . . تذكرت عندما استلمت السكين حذبه علي وتدايله لي .  
تذكرت ايام مرضي حين كان يسهر على سريري لا كالأب ولا كالأُم . تذكرت  
سني طفولتي في احضانه الحنونة . فأدبرت النصل الى صدري . . .  
ثم تذكرت دير ياسين ، والوف المشردين ، والوطن الجريح السليب .  
فأنعمت النصل في صدره .

فحدقت في وجهه بإعجاب وعجب وانا أهمس :  
- والآن ، ما الذي انت فاعله ؟  
فأطرق هنيهة في عذاب ، وتم بصوت كسير :  
- سأنتحر . . . بل سأستسلم للدرك .  
ثم رفع راحه فجاة وهو يهدر بحماس وكبرياء :  
- كلا . . . لن أموت أو أستسلم وأمامي من الحونة والأعداء ملايين . .



## الاص

كانت شبابيك البيت الأثرية تثن وتزفر عند كل هجمة من هجمات الريح . وكانت سيول المطر تتدفق إلى الداخل و كأن لا نوافذ . هلقة . فيصبح البيت - أي الغرفة الوحيدة الضيقة المدفونة تحت الأرض - بحيرة تتجمع فيها المياه . وتصبح الأسرّة والفرش - وما هي إلا قطعاً خشبية سوداء عميقة تتناثر عليها خرق كانت فيما مضى أكياس خيش - تصبح هذه الاسرة والفرش سفناً تعوم على الماء . ولا يجازف سكان ذلك البيت بر كوب هذه السفن خوفاً من انهيارها وتفتتها . بل يعدون إلى ربوة من الطين أبي البناء إلا تركها شاهداً على إهماله ، فينحشرون على سطحها الضيق . وبينما كانت الاسرة المؤلفة من طفل وأمه وأبيه تتكديس على تلك الربوة التذكارية ، إذا يبرق خاطف يشق الغيوم فتلعنه بهزيم وعدها الهدار . وصرخ الطفل واصطكت أسنان الزوجة ، فمضى الرجل يتسم بأيات الله . بدأت أولى خيوط الفجر تتسلل في الظلام مرتعشة تكاد تنقطع . وكأنما الرياح قد لاحظت ارتعاشها ، اذ مضت تهاجمها بشدة وقسوة ، بمعنة فيها تمزيقاً . كان ذلك في ليل بارد من ليالي شباط ، والغيوم محشورة في القبة الزرقاء حشراً ، سوداء مدلهمة ، ترتجف تحت ضربات الريح ، وتنكمش على نفسها كهر في زمهريره . فلا ندري اذن ، من اي ثغرة بين الغيوم تسلت خيوط النور تلك ...

انفصل رامز عن كتلة اللحم البشري ، ونزل عن الربوة خائضاً في بحيرة الماء ، كان المطر قد انقطع ، ولكن الحفر والشقوق في أرض الغرفة لم تستطع بعد ان

تبتلع كل الماء المحصور بين الجدران الاربعة . كان رامز قد رأى خيوط النور المتقطع في السماء ، فأدرك أن موعد عمله قد حان ، فسار في الطرقات الضيقة ، الغائرة بين البيوت ، الفارقة في بقايا المطر ، الضائعة في ظلام الليل . وكان كالسكران يمشي مترونجاً ، في كل خطوة يخشى الانزلاق . فطريقه كانت مليئة بالوحول ، وبقايا من الاوساخ . وكثيراً ما اعترض سبيله نهر ، ذلك أن مياه المطر كانت تتجمع وتجري في الطرقات الضيقة المنحدرة ، صاحبة معبردة ، وكأنها نهر يهدر .

بعد مدة ، كان رامز يقف أمام الفرن ، منهمكاً في خبز الأربعة ، وكانت النيران المتأججة تسلط على وجهه سعيرها ، فتلهبه وتكاد تشويهه . وينحدر العرق على جبينه نقاط كبيرة ، تمنع في وجهه عقصاً . ولم يكن لديه من الوقت ما يمكنه من مسح تلك النقاط من العرق . فالعمل متراكم أمامه ، وصوت المعلم يدوي في أذنه حاداً صاخباً غاضباً :

- يا كلب ! يا خنزير ! يا بليد ! يا ... يا ...

لقد كان ذلك المعلم يجزل لخدومه بسخاء شتائه « المؤدبة » . فقد كان ذلك جلّ عمله ، يأتي في الصباح ليكيل السباب . وما أن يكمل ، لسانه « المحترم » ، حين يترك الفرن ويذهب إلى المقهى ، فيجلس على كرسي في الزاوية ، ويمد إلى « نارجيله » يدخنها بشراهة . وتعالى قرقرة « النارجيلة » ، فتترعش لها أذنه بطرب ، وترتسم على فمه ابتسامة كبيرة تكشف عن أسنانه العجيبة ، المكسرة ، الضائعة بين اللون الأسود والأصفر . ويتعالى صوت النارجيلة ، فينسحب إلى أذنه لحناً جميلاً عذباً . ويتذكر رنة اليرات الذهبية وهو يعدها كل مساء . ويدوي في أذنيه صدى رنينها الأخاذ . وتختلط قرقرة النارجيلة برنين الذهب ، ليؤلفاً لحناً فريداً صاخباً ، لا يستطيع أن يركن إلى سواه . ويتبعه صاحبنا في تأملات ذهبية تنقطع كلما انقطع نفس النارجيلة المحببة . فهو يتصور ربح اليوم وكم سيكون . وهو يفكر في أجدي الوسائل التي تمكنه من ابتزاز أكبر مبلغ من المال من المستخدمين والمستهلكين .

« والمعلم » اليوم يفكر بطرد وامر من العمل ، لأن حسين عرض عليه العمل بأجرة أقل . وهو يفكر بزيادة نسبة طحين الذرة والشعير عند مزجه بطحين القمح في الخبز السوقي . وهو يفكر ويفكر بأفكار خميصة كثيرة ليس لها حدود في مخيلته الشيطانية . وفجأة ، قطعت عليه تأملاته ، وبدون سابق إنذار ، يمد يده باردة وضعت على كتفه . فالتفت ، بشيء من الدهر وكثير من الغضب ، وهو يستعد لتحية مزعجه بنصف محتويات قاموس الشتائم . غير انه وجد مزعجه شخصاً محترماً . إنه زميله ، صاحب الفرن القريب من فرنه . وبين الزميلين صداقة متينة جداً تكاد تعادل متانة خيط المنكبوت . وزادت الابتسامة على فم صاحبنا اتساعاً وهو ينهض محيياً زميله « العزيز » ، ومقدماً له كرسيًا بقربه . وجلس « الصديقان » يتحدثان بشؤون وشؤون ، وكل منهما يضرر للآخر الكراهية والحقد والبغضاء . ولكنها يلفلغان ذلك بستائر من المجاملة والابتسام . وبعد قليل يكون في زاوية المقهى كما يكون كل يوم ، مخلوقان يدخان النارجيلة ويسلطان على المارة عيونها النهمة . فكما مرت امرأة استعرضها من أخص القدم إلى قمة الرأس ، وربما توقفت نظراتها شيئاً من الوقت على ساقها ، او على موضع آخر . . . وما أن تمر عابرة السبيل تلك ، حتى ينهمك الصاحبان في حديث مبتدىء هكذا :

أتعرف من هذه ؟ - نعم ومن تكون ؟ - إنها ابنة فلان الفلاني ! . .  
ويتطور الحديث . . . فيستعرضان خلاله تاريخ الفتاة وأسرتها . بل تاريخ فضائح الأسرة ، الحقيقة والمخترعة . وتجود قريحتهما على الفتاة بادنى الأوصاف ، وبمفتريات لا ينجبها من ملحقاتها الا مرور فتاة أخرى تفتح المحترمين حديثاً جديداً . . .  
- الله أكبر . . . الله أكبر . . . !

وبدوي صوت المؤذن مجلجلاً بالأذان . فينهض « التقيان » احتراماً وتديناً . ثم يجلسان في صمت . غير أن حديث الفضائح لم ينته بعد ، فيختلسان الوقت كلما صمت المؤذن ليستجمع أنفاسه ، ويتمتان بحديثهما « المهم » . ثم ينهضان من

مجلسها ويتجهان نحو الجامع .

#

- يا كلب ، يا خنزير ، يا بليد ، يا . . . يا . . . اشتغل !  
فارتعش رامز ارتعاشة مخومة ، وطفى على عرق التعب الحار ، سيل من  
العرق البارد استنزفته المفاجأة من جبينه . فرفع يده يمسح عنه العرق .  
- اشتغل ! اشتغل ! يا ابن الحرام ! أنتظن اني اعطيك الاجرة لكي تلهو  
طول النهار وتمسح العرق ؟ ! علي الطلاق بالثلاث ان أبقيتك بعد اليوم في القرن  
لحظة . أخرج . . . إذهب . . . اغرب عن وجهي يا لعين . . . !!  
واستدار « المعلم » بكل جد ووقار ، وهو يحاول عبثاً إخفاء بسمة الرضى  
عن وجهه ، ثم سار بتؤدة نحو المنزل وهو يكاد يرقص فرحاً . وبحركة آلية  
امتدت يده إلى جيبه تخرج مسبحة غليظة أخذت تداعبها وتعزف بحباتها حناً  
مبتكراً . . . وعلى اللحن تحركت شفتاه بصمت . ولكن ذلك لم يمنع الشفتين  
من أن تفترا في بسمة فضحت فمه الكبير الواسع . إنه فرح طروب . فقد استطاع  
بأهون سبيل طرد رامز من العمل . وغداً سيستخدم حسين . . . ذلك الشخص  
الذي يشتغل بأجرة زهيدة جداً ، والذي يستطيع أن يبيع ضميره بكل سهولة ،  
ويسرق من الحبز ويتلاعب دون شفقة بألعاب الاجراء الصغار .

•

بسط الليل على الكون وشاحه الاسود ، فأغرقه في ظلام رهيب ، هادىء  
هدوء الموت ، ساكن ساكن سكون العدم . فتلمس رامز طريقه الى البيت تلمساً ،  
وهو يتعثر تعباً وإعياءاً واضطراباً . وكان على جبينه ظل خفي من ألم عميق .  
وكانت عيناه المحمرتان تقضبان النار المتأججة في صدره . وما كاد يطأ عتبة  
المنزل حتى خف طفله الى استقباله على عادته ، وتعلق به وهو يفرد : - بابا . بابا .  
فنظر اليه نظرة طويلة عميقة ، لم تلبث الدموع أن كفنتها بستر أغبش . وكأنما  
أدرك الطفل سر والده ، إذ أطرق إلى الارض فجأة ، ودفن رأسه الصغير بين

فخذي أبيه وهو يهيم بالبكاء ويقول :

— إنك لم تحضري اليوم « معملًا » يا بابا ...

فرفعت الزوجة نظرها متسائلة :

— ماذا بك اليوم يا رامت . لماذا لا تداعب الصغير كما أدتك ؟ هل أنت

مريض ؟ ؟

فادلهمّ وجهه وهو يئنّ :

ليس بي شيء ... ليس بي شيء ... !!

وكذبت عيناه لسانه . فجهرى دمه غزيرا ينطق بالنكبة . فبكت الزوجة

لبكائه وصاحت :

— لماذا لا تشكو إلي بشك . ألسنت شريكة حياتك ؟ !

فهمس عن كبد حرّى :

— من أين سنطعم الصغير غدا ؟ ! ...

فرلوات بارتباع :

ماذا ؟ أعاد المعلم فأنقص أجرتك ؟ ؟

فحشرج بلوعة :

— بل أدهى وأمر ... لقد فصلني من العمل ! !

فقصمت ظهرها الكارثة . ورفعت الى السماء نظرا زائغا يشكو البليّة :

رباه ... ! علام نستحق هذا الجزاء ... ؟ أين عدلك يا عادل ... !

وعصفت بالبيت ريح الألم . فبدا كساحة قتال خلفتها معركة . وساد

الوجوم يثقل الصمت . فأطرق تحت كأكله الجميع . حتى الصغير البريء ابى

الصياح وكأنه فهم من الدنيا الأسي ...

وأخذت الدقائق تسحق نفوس الثلاثة . وأبت الا الابطاء لتطيل عذابهم . إلى

أن أشرقت طلائع الصباح ، وابتسم الفجر ، وزقزقت العصافير ساخرة . فانتزع

نفسه من الحجر المظلم ، وفرّ هاربا دون أن يجيبي زوجته او يقبل طفله . وتقاذفته

طرقات البلدة . وأبى الحظ أن يبسم له . فهو كلما وقف بباب فرن دوت في أذنه صرخة صاحبه : - لا . . . لا نريد أجيرا . . .

واستبدت به الحيرة . فمضى يجرّ في الشوارع نفسه . ما هذه الافران اللعينة . ألا يفتح احدها في وجهه بابه . ونقم على الخبز وصانعيه . ولكن ما العمل . . . والصغير يجب أن يأكل . . . ! وسعى نحو المحال التجارية على يدمرتزقاً . فأصابه منها ما أصابه من المخابز . وفي النهار في ظلمة الليل . فتوجه إلى المنزل كسير النفس والنظر . وتعهد الإبطاء كي يجد الطفل نائماً . فقد كان يخافه ، يخاف براءته وطهره ، يخاف ثقته العمياء به ، يخاف نظراته المترسلة تطالب الطعام وتنتظر « المعلم » . وأخيراً وجد نفسه يطرق باب منزله . ففتحت الزوجة اللهي . وإذا بها تصفرّ عجباً وهلعاً . إذ لم يكن هناك على الباب من أحد . أما رامز ، فكان قد أصبح بعيداً . لقد فرّ من زوجته وطفله . . . لقد فر من شواهد بؤسه . . . وكيف له أن يدخل الدار دون طعام غير ان الواقع ظل يلاحقه ، فمضى يتخبط في الديجور كالمشواء . وقاده الخطو إلى بيت معلمه السابق . فانها على الباب بقبضتيه قرعاً . واستفاق الجيران واستفاق الحي . . . ثم استفاق والمعلم . ففتح الباب يتشاءب ويتسطى ، ويلعن ويدمدم . وما ان رأى رامز حتى هجم عليه كالوحش الكاسر ، وهو ينهال على رأسه بالضرب والشتم . فحاول المسكين أن يذوّل :

هات خمس ليرات . إن لي عندك أجرة شهر . . . ان طفلي جائع !!!  
فتعاون الكل على طرده . . .

- ليس هذا وقت دفع . . . عد إليه نهار غد . يالك من وقح !  
فلوى أذنة قدميه . وسرى يتعثر بأذيال خيبته . وأعياء سرّ وقاحته . فقد كان يفهم ان المعلم فاق الوفاحة بتجويع طفل صغير . ولم يهتد إلى الغريب في المطالبة بحقه . وعرف الليل سجناً وعرفه الليل مجنوناً . وظنه المارة سكران مثلاً . فقد اخذ يجوب الشوارع راكضاً وراء لا شيء . . . وكان اللاشيء عدلاً

افتتده بين الناس لم يجده ، وطال عايه للظلام وهو لا يعرف اسنقرارا . فقد  
أبى الصبح أن ينبلع . . . . . وأبى الفرن أن يفتح أبوابه !!! وجعل يرقب النجوم .  
وكانت على عهدا تتغامز في السماء هزءاً بساكني الأرض ! ثم ابتدأت تبتسم  
لدفحات من النور يثرها المشرق . . . . .

فتذكر زوجته وحنّ إلى طفله . . . هل هما نائمان الآن أم لا يزالان في سهر؟  
وتصور صغيره بصرخ بذلة :

- ماما ، أريد أن أأكل . . . . . لماذا لم يحضر لنا بابا الحبز ؟

وتصور ابنه يرتعش من حمى الجوع ، وأمه إلى جنبه تبكي بصمت وتقول :  
لقد تأخر بابا يحضر لك « زبدة » وليشتري لك لعبة حلوة . . . . . فتم  
يا حبيبي الآن !

فيقفز الصغير طرباً وهو يتساءل :

- وهل ستكون مثل لعبة ابن الجيران ؟

ثم يطرق فجأة ويهمس بصوت مخنوق :

ماما . . . . . لماذا ابن الجيران يأكل الزبدة والمربي كل يوم وأنا لا  
أأكل . . . . . لماذا يحضر له أبوه اللعب وأبي لا يحضر ؟ . . . . .

فتشهق الام بالبكاء . وتتشنج أعصابها في ألم هائل . فيبكي الطفل لبيكتها  
ويصرخ . . . . .

- أريد بابا . . . . . أين بابا الآن . . . . . ؟

تصور رامز كل ذلك . فاضطرم بالثورة رأسه . وانطلق يعدو في الشوارع  
من جديد ، وكان الصبح قد أسفر . إلى أن استقر به العدو على باب الفرن ، وكان  
الأملم يصرخ على عادته :

يا كلب يا خنزير يا بليد . . . . . اشتغل .

فصاح رامز بانفعال :

- اعطني اجرتي ، طفلي يمزقه الجوع . . . . .

فانفجر المعلم صارخاً :

- انت هذا أيضاً . . . اطرده !!

وما أتم كلمته حتى تدحرج أمام دفعة من قبضة رامز ، الذي اندفع إلى الصندوق محتطفاً ما وقعت عليه يده من خبز ونقود . ثم عدا هارباً لا يابوي على شيء . فما توقف إلا ليشتري « زبدة ومربى » ودمية صغيرة ، انطلق بها إلى البيت بنشوة . وما أن فتح له الباب حتى هجم على طفله يوسعه القبل ويلقي إليه بالهدية . فما صدق الصغير عينيه . بل رنا إلى أبيه يسأله بفرحة :

- بابا . . . كل هذا لي ؟؟!

وأخذ يرقص طرباً وهو يضم الدمية إلى صدره . ثم مدّ إصبعه ليذوق المربى والزبدة . وإذا بالضجة تصدم الباب . وإذا بالدرك يدخلون ومعهم « المعلم » . وانهار الاب وهم يضعون القيد في يديه . وصرخ الطفل وهم يسلبونه كثره :

- جوعان . . . اريد ان أأكل « زبدة ومربى » . . . أريد مد لعنتي . . .

أريد بابا . . . !!!

ولكنهم مضوا بأبيه لا يعباون . يوا كبهم صبينة الحبيّ ووشوشات النساء .

وكم مستطلع عاد يدمدم بسخط :

- اللص . . . اللص . . .

غير ان رامز كان لا يحرك ساكناً . وآسروه يدفعونه بأيديهم وهو كالمأخوذ لا يبدي ولا يعيد . إلى أن اصطفق الباب وراءه . وصرّ المفتاح في القفل ، وسكن كل شيء . فعاد إلى نفسه وإذا به حيس نظارة السجن . وحيداً بين جدرانها الخرساء . وتبدّى له كل شيء على جليته . فحاول التفكير فلم يستطع . وحاول التألم فعصاه الاحساس . وأراد البكاء فخذله الدمع . وأجذب شعوره وقد فنتت نفسه في العذاب . فمضى يذرع الحجر الضيق بخطوات مجنون ، ويئن بصوت كزثير السباع . وقضى الليل على تلك الحال . وطلب الاستنطاق فما أفاد ولا أجاب . فتبنت عليه التهمة وكم كان لها من شاهد عيان . وغلّ يديه القيد من جديد .

ومضى به السرك الى السجن . واصطفتى وراءه الباب ثانية . فادا هو في عالم  
لا كالعالم . حكاه « عرفاء » و « أنفاز » ، ورعاياه قتلة ولصوص ! وجاءه احدهم  
يفتش جيوبه . وقاده آخر يخلق شعره . ودفعه ثالث الى « قاووش » مظلم .  
فاذا هو بين عديد من الاستيلاء يستظلمون خبره . ونظر حوله فلم يجد سوى  
الجدارة الرطبة تندب حظها وحظه ، والهواء القذر يخلق أنفاسه ، والعقونة  
النتنة تسحق حواسه . وكان كل شيء هادئاً ساكناً . . . إلا عواصف من  
الذكريات تكتسح الافئدة . . . وجيوشاً من الحشرات تكتسح الاجساد !  
وجعل الليل والنهار يتطاردان في حلبة الزمن . وكان رامن على هامش الحياة ،  
لا يشعر بشفق أو غسق ! كان شبه حي في قبر الاحياء . . . يتألم فلا يجد لألمه  
مبتغساً ، ويشقى فلا يدعى لشقائه العزاء ! تذكر زوجته وطفله ، وتذكر حياته  
المضية كلها . فزقت من الحسرة الأسته . وعرفه رصفاؤه شبيحاً يجثم في زاوية  
« القاووش » ، ساهماً شاردأ . . . محققاً في الحائط بنضرة باكية . واشد ما عذبت  
الافكار : فمن أين ستعيش أسرته وهو رهن القيود . انه عامل فقير لا يأكل  
يوم لا يشتغل . فكيف به وهو سجين واسرته بلا معيل !!

وزحفت على هيكله الايام . . . وهو في زاويته لا يفارقه إلا الى الفراش  
ولا يفارق الفراش إلا اليها . وطلب للجلسة فحوكم . وحكم عليه بالسجن ثلاثة  
اشهر . وكانت اليوم يمر بطيئاً فيخاله شهراً ، ويمر الشهر فيخاله السنين الطوال .  
وجعل يفرض حياة عائلته شتى الفروض ولم يكن ليذوره في السجن من احده .  
وكرت الايام والاسبوع . . .  
فاقتربت ساعة الخلاص . . .

\* \* \*

سالت السماء نوراً وانسكب الهواء عطوراً . . .  
فوقف يملأ رئيته بالنسيم المنعش ويتملى من حرارة الشمس . وكان صدى  
اصطفاق الباب لا يزال يلاحقه . وكانت أصوات السجناء لا تزال ترن في أذنيه . .

مع السلامة يا رامز . . . هنيئاً لك بالحرية !!!  
 ونظر الى يديه فلم يجد القيد يعاها . . . وثلفت حوله فلم بصطدم نظره بالجدران  
 ولا القضبان الحديدية . . . وافتقد الحراس فلم يجد عليه من الدرك رقيباً . . .  
 فتنفس الصعداء من جديد !!! وانطلق الى البيت متخذاً من الحنين جناحاً .  
 واستغزه الشوق واستخفه الطرب . . . فحصى يتصور طفله وقد رآه ، يقفز اليه  
 وهو يفرد فرحة طاغية :

أهلاً وسهلاً يا بابا ١٩ أين كنت يا بابا ؟ !

وتصور امرأته تعانقه بشوق وحنان وهي تهمس :

الحمد لله على السلامة يا رامز . . . يا حبيبي !!!

وتدقق بالشوق والحب دمه . . .

ووجد نفسه على باب منزله . . .

فارتعشت ركبته ، واستعرت خفقات قلبه ، واضطرب أمام الفرحة المنتظرة !  
 وأراد أن يفاجيء ذويه . فدفع الباب دون جلبة . ودخل وهو يجبس ضحكة  
 كادت ان تنطلق مجلبة . وإذا به يقف وقد جمد الدم في عروقه . فهناك في  
 ركن الغرفة المظلمة كان يتمدد هيكل عظمي ، لم يعرفه . . . بل لم يرد أن  
 يعرفه ! شبح هامد مسجى ، نكسوه صفرة الموت الرهيبة . عظامه النافرة تكاد  
 تمزق الجلد المهلهل . . . وراثبه الرثة تكشف عن جسده المتآكل . . . ! أهذا هو  
 طفله ؟ !!! أمذا من كان زهرة الحى وبلبل البيت ١٩٠٠ وأين أمه ؟؟ أين  
 من كانت له الملاك الحارس ١١٠٠٠ !!!

تقدم رامز متخادلاً ، وجنا أمام طفله المسكين . كان يبدو ان الحياة فارقتة ،  
 لولارعشات في الصدر خفاف . فحطمت قلبه الكارثة . وتهاوى مجهشاً بالبكاء .  
 وإذا بالصغير يفتح عينيه بوهن ، محدقا في الاشياء بنظرة جامدة . وأخذت نظرتة  
 ترق شيئاً فشيئاً ، إلى ان عادت إلى الحياة ، واستقرت على وجه أبيه . وإذا  
 بابتسامة هزيلة تشق دربها عبر الوجه الميت . . . وإذا بالطفن يحاول النهوض

ر هو يهوس :

بابا . . . !

وكان رامز لا يشعر . . . وكان يشعر بكل حواسه . . . كان الحزن  
يسحق قلبه . . . وكان الفرح يسحق قلبه . وما أن سمع وحيدته يهتف باسمه  
حتى انفجر يوسه القبل ويغسل وجهه بالدموع ، فتلوى الصغير وهو يرفع إلى  
أبيه يديه ويقول :

بابا .. أنا جوعان . . . ! ماما ذهبت تتحضر لي طعاماً وتأخرت . . .

وعلى وجهه سطر الألم اصفرار العذاب . فتلوى رامز . . . وتلوى طفله ..

ثم هتف من جديد :

— لا تبك يا بابا . . . أنا أحبك ! !

وارتعش الجسد المزبل . . . وتراخى الرأس الصغير . وتعالى نشيج رامز . !

وعاد يتحسس طفله . لقد كان له طفل . . . وقد كان ما كان . . . !

وجعل يناديه . . . وجعل يناجيه . . . وأنتى للبيت أن يجيب !

فحجج الألم قلبه . وجمد العذاب دموعه . ولمع في رأسه خاطر . . . فانطلق

يعدو إلى بيت معلمه القديم . لم يكن يعلم لماذا يركض . . . بل لم يكن يدري

أنه يركض ! ودفع الباب . واندفع إلى الداخل . وإذا بمعلمه في وضع قاضح

مع امرأة . . . وكانت المرأة زوجته . . . أم الطفل الذي مات ببناهي تزني مع

قاتله ! فانفجر . . . ! انفجر شعوره . . . انفجر قلبه . . . انفجر دمه ! وهجم

على الباغي يضغط على عنقه بكلتا يديه . . . ويضغط . . . ويضغط . . .

وهز الخبر الحبي . . . واندفع الرجاء إلى العرفسة بالمشرات . . . وجعلوا

يجهدون لتخليص الضحية .

وام يكن رامز يشعر بشيء من ذلك . لم يكن يسمع سوى صوت ابنه

يصرخ وهو يموت « بابا . . . جوعان » . لم يكن يرى سوى زوجته تزني لتطعم

الصغير . لم يكن يرى سوى الدماء . وكان يضغط . . . ويضغط . . .

وانتفض المعلم . . . ثم سكن إلى الابد !

فانتصب رامز يقهقه ويقهقه . . .

وقبل أن يدرك أحد قصده ، وثب على زوجته مطقاً على عنقها بيديه وهو

يقهقه . . .

وحاولوا المستحيل لانقاذ الضحية . غير أن رامز كان كتلة من عضلات

وأعصاب . كان قوة هائلة يجهد بها البشر . وكان يضغط . . . ويضغط . . .

وبدا للجميع أنه 'جن' . وخاف كل على نفسه ا فهرب البعض وارتعد البعض .

وشهر أحدهم مسدساً أطلق رصاصه على القاتل ! فسالت دماؤه . . . وظل يضغط

ويضغط . . . الى أن انتفضت انتفاضة الموت ، وتهاوت إلى الارض بلا حراك .

فهوى إلى جنبها يلفظ أنفاسه . . . !!



## أنا المحروم

أربعة قهوة سكر زيادة ...  
- واحد شاي ... ماء ثلاثة ..  
لماذا ... لماذا أنا ملزم بخدمة كل هؤلاء ؟ لقد بدأ رأسي يتهاوى على منكمبي ،  
واوشكت ان اتهالك على ارض المقهى اعياء آ . والزبائن ما زالوا يصبحون :  
- أين الكوتشينة يا ولد ؟  
- اثنين عصير .. ثلاثة « عصلي » .. واحد سادة ..  
أسرع .. أسرع يا عادل . عليك ان تلبى جميع الطلبات . تجلد .. اصبر ..  
لا بد ان يأتيك الفرج .. اما الآن فاعرف قدر نفسك . ما انت إلا خادم ..  
ندل مقهى ..  
ولكن ، السهرة استطلت الى ما بعد منتصف الليل . لقد تراخى جفناي  
عن ضا . وادناي مألها طنين ودوي . رحماك ربي .. اما لهذا الليل من آخر ؟  
رحماك يا إلهي .. ماذا جنيت لأستحق الجلد بكل هذه السياط :  
نارة يا ولد  
عجل هات نفس .. نار جيلة !  
واحد كازوزه .. اثنين كولا ..  
- هنا يا ولد .. إذهب اشتر لي علبة سجائر !  
وانا .. الا استحق لحظة راحة .. ؟ إنكم تسترخون على كراسيكم في اطمئنان  
مترف . وتعتمدون بمرافقكم على الموالد لامبالين ، نافثين في الاجواء غير دناكم

الانجليزي ، او عازفين على التراجيل الحان البطالة والفراغ . انكم تقتلون اوقاتكم لهواً ، تلعبون الورق والنرد ، وتصفون الأجواء بققهاتكم العابثة . بينما أنا .. أنا الانسان الذي من طينتكم ، أركض من مائدة إلى مائدة ، خادماً رغباتكم اللجوج ، أحترق كيا تشقون البخور ...

كفاك غيباً يا عادل . إنما تعمل أنت لقاء معاش . اجرة تقبض بدل خدمتك . أشكر الله على ما أنت فيه . واتعظ بألوف العاطلين عن العمل .

أجل ! أنا لست بالمتبرع خدمة . لكن جاراً لي يملك حمراً . هو يستخدمه النهار ويربجه الليل . ومل ، جوفه يطعمه . . . وانا ابن آدم . الا كرامة لي قدر حمار ؟ منذ الساعة السابعة صباحاً أنا اعمل . والآن هي الثانية عشرة ليلاً . خمس عشرة ساعة قضيت على ساقى لا اهدأ . خمس عشرة ساعة . . . !

وأجرتك . . . أنسيت ما تستوفي من المال ؟

اجرتي . . . اية اجرة . . . خمسون ليرة في الشهر . في بيروت . . . خمسون ليرة . . . اين انت ايها المورت . لماذا تهرب مني هكذا . إن وجهك القبيح لأجل الف مرة من الحياة . . . هذه الحياة اكل شخص يعتلي متني :

... تعال يا ولد ، إذعب يا ولد ، هنا يا ولد ، هناك يا ولد .

انا الولد . . . لقد ربيت شاربني كيا يعلموا اني رجل . ولكن يظهر ان عيونهم لا كالعيون . فلقه ظلمت في عرفهم ولداً . . . رغم رجولتي . رجولتي . . . آه . . . هم لا يعترفون بها . فقد حدث ذات يوم ان مرت سائحة اميركية ، واقتعدت إحدى كراسي المقهى . كانت جميلة شقراء ، تبرز ثيابها الضيقة محاسن جسدها الشهي ، وتنحسر عن جبد من العاج وساقين من الرخام . حدثت معظم رواد مقهانا في تلك الغادة ، ومضوا يلتهمون بنظراتهم ما نظم من مفاتها وما بطن ، متقاذفين كلمات التعريض بها ، في قحمة وخلاعة . اما انا فقد شديني منظر تلك الحسناء . فوقفت اتملى من حسننها كما يفعل الآخرون . لكن خبيثاً من الزبائن ضبطني وانا على تلك الحال . فأطلق « ضحكة رنانة » وهو يدمع

ساحراً :

انظروا إلى الولد . انه يتأمل ( البضاعة ) هات أسمننا قصيدة غزل

« يا قيس » . .

وما لبث المقهى أن ضجّ بقمتهات القوم يخرون مني . وتبارى ثقلاء الدم  
في التنكيت عليّ والتعريض بي . حتى اضطروني أن أتوارى خلف سبل من  
العرق البارد انبثق من جبيني .

ورجعت إلى العمل أغرق فيه الضيق والنتمة ، وبنا ظلت نظرات القوم تلاحقني  
هازئة . ولم أعد أسلم ولما أسلم حتى اليوم ، من كلمة سخريّة لا ذعة يحاول ثقبيل  
تذكيري فيها بما تم يومذاك .

وها هم زبائن المقهى يقتعدون الكراسي في استرخاء ، معربدين مقهتهين ،  
يطلقون النكات كيفها كان ، ويسبحون كلما استحسنوا ذلك :

— تاره يا ولد . . واحد ساده . . اثنين شاي .

لا ريب أنهم يحسون شعور العظمة والاستعلاء عندما يصرخون بذلك . فهم  
يؤمنون في قرارة نفوسهم أنهم لم يخلقوا إلا ليحكموا أمثالي من المخلوقات . إن  
لهم مفهوماتهم الخاصة — أولئك المترفون . إن لهم عالمهم الواسع البهيج . لا ريب  
أنهم يعرفون من المرأة اضعاف ما اعرف . انا اعلم ذلك جيداً . . اعلمه من  
بريق عيونهم ، عندما ينظرون الى اية عابرة سبيل . ولكنهم انايون . . يريدون  
ان يكون لهم كل شيء . . يريدون ان يحرموني من كل شيء ، حتى من  
النظر العابر الى حصن .

الدف . . الالف ، الاذيد الحذر . . لا ريب انه عند المرأة . كنت اشعر  
كلما استلقت على فراشي وبدأت النوم ، انه ينقصني شيء . . شيء حيوي بلا  
كياي . . شيء هو انثى . . بل هو هراء . متى كنت استطيع حصر كل  
ما ينقصني — انا المحروم « رباة . لماذا خلقتني ؟ لماذا ترى احيا ؟ لماذا ؟؟

لا يا عامل . . لا تأس من الدنيا . هاهم الزبائن بدأوا يتبعثرون . فقد انفرط

عقد السهرة . ابشر . . بعد قليل ستمكن من الذهاب الى بيتك .  
بيتي . . اي بيت . هو قبر مدفون تحت سلم احد المنازل . كان اصحاب  
الدار يربون فيه الدجاج . غير ان الدجاج اخذ يموت نتيجة الظلمة والرطوبة  
والهواء الفاسد في ذلك القبر ، عنده اخلاه رب الدار مقررأً تأجيره ، وهكذا  
فرض عليّ ايجاراً قدره خمس وعشرون ليرة في الشهر ، ثم انتحاري فيه .  
واخذت الانوار تنطفئ ، في ذلك المقهى من بيروت مصباحاً مصباحاً ، الى  
ان غلقتة الظلمة ، ومزق السكون دوي اغلاق باب الممدني ، ثم انفصل عن حاك  
المبنى شيخ دقيق العود فارغ القامة ، مضى يجبط في الديجور كاسكران  
تعتعه الشراب .

ها قد انتهيت اخيراً يا عادل ، فانتبه في مشيتك واشدد من خطوك ، أحدثتك  
نفسك باليوم في الطريق ؟

وهل انا خير من اولئك المستأقنين على رصيف الشارع يلتحفون السماء ، او  
ينحشرون في سلالهم كالتوقعة حذر البرد ، هم على هامش الحياة . . كلنا على  
هامش الحياة نحن الفقراء . نحن من يعصر ويبيني ويحيك ، ولغيرنا الشراب  
والقصور والحريير . وذلك الشاب المتمدد على اقدام تلك العمارة الضخمة ، انه  
يسند رأسه في غفوة تلك الى حذائه المتهرىء ، ملقياً ذراعه على حجر كالح الحشونة .  
لا بد ان ذلك المسكين يحلم الآن بانه يعانق حورية فاتنة . فلبسعد الحجر .  
اما فوق ، في تلك الدور المترفة ، حيث يعيش الأسياد ، كم من آهة لذة توشوش  
النسيم ، وكم من نور احمر يحمي سرير حب . هناك حيث يعيش الأسياد ، كم  
من رجل الآن يحتضن الأنثى ، وكم من شقاء تمتص وتمنح الرضاب . كل  
ذلك فوق . . في تلك الدور المترفة . وانا ، انا وحدي . . اسري في الشارع  
الكئيب . يبدو ان الشارع لن ينتهي ، فهو يستطيل ويستطيل . أين منزلي أين أصبح  
منزلي ؟ انني أريد ان اصل ، هذا اليوم أنهكني ، أريد ان انهم بدفء الفراش . هراء ،  
أي فراش ؟ ان ما تستلقي عليه كان بالتأكيد فيما مضى فراشاً ، غير ان ذلك

كان يوم زفت أم جدك الى ابيه . ألم يقل والدك مرة ان هذا الفراش شيء  
تذكاري تتوارثه العائلة ؟ كان احري بك ان تضعه في المتحف ، هذا الذي  
تدعوه فراشك .

إنني على اية حال انام عليه ، وهو خير من الرصيف ، ما في ذلك شك ،  
غير اني اشتاق فيه الى امرأة - اية امرأة .

أعدنا الى التفاهات يا عادل . أنسيت يوم زرت احداهن ، في سوق النخاسة ؟  
كان ذلك يوم الانتخاب . فرضت الحكومة على المقاهي الاغلاق . فربحت  
من العيش يوم راحة . واغراني بعض الرفاق فقادوني الى هناك . وما انت  
دخلنا الحي حتى لوثت أنفاسنا ربح نتن ، وصدمت أنظارنا غاذج منهن اقتعدن  
الكراسي امام ابواب مواخيرهن ، كاشفات للمارة سيقانا مترهلة ، وصدوراً  
مسترخية ، وصوراً رخيصة مبتذلة . وكن يدعون الرجال اليهن بالكلام اللين  
نارة ، وطوراً بالشتائم البذيئة من ثقل عبار . لا ادري كيف طاب لنا يومذاك  
أن ندخل احد تلك المواخير ، كلما اذكر اني اجتريحت المعصية في ميكانيكية  
وخرجت احث الخطى مبتعداً ، وانا احاذر النظر الى خافي لثلا اري معرض  
اللحم القدر ذاك . غير اني دفعت التمن ، دفعت التمن لا ثلاثائة وخمسين غرساً  
فحسب ، بل خمسين ليرة اخرى للاطباء والصيدالة ، بعد ان ابتليت اثر زيارتي  
تلك بالمرض السري . لقد دفعت غالباً ثمن ما اقترفت من زلة ، اذ تشاجرت مع  
الخانوتي والبقال ومالك القبو ، حين طلبت اليهم ان يصبروا على ما استحق لهم  
عندي شهراً . لم يكن معي مال فصبروا راغبين ، وحتى الآن وقد مضت على  
الحادث سنة ، لم استطع ايفاء كل ما علي من ديون .

يا لها من ذكريات يا عادل ، تلك التي تعصف بمخيلتك . الا ترى انك قد  
وصلت الى منزلك . الى قبوك . ها هو فراشك التاريخي ، أما زلت تشتاق  
فيه الى امرأة ؟

انا لا اريد تلك البائسة جسدها للناس متاعاً . إنما اريد إنسانة . . إنسانة

تشار كني الآلام والآمال .. إنسانة تدفع عني كابوس الوحشة وهوم الحياة .  
أريد حناناً وعطفاً .

ولماذا لا تتزوج إذن يا عادل ؟ أراك تفكر في الزواج جدياً . .  
خمسون ليرة هي كل ما أفض معاشاً . ومالك الفيو يأخذ نصفها أيجاراً .  
خمس وعشرون ليرة يبقى لي ثمن الأكل والملبس . ماذا سأفعل بها . . هذه  
الدرجيات ؟

حتى الريبون أصبح غالي الثمن عسير المنال . ليمتني كلباً في ذنوبي . آه لو  
تنفع لبت !

لو تنفع ( لبت ) لما خسرت في الرهان ذلك الاسبوع . كان ( بساط الريح )  
قبل ان اراهن عليه اسرع خيول السباق . فما ان دفعت الليرة وبدأ شوطه  
الجديد حتى اصابه نحسي بسهمه ، فتهتق عن الفوز لغير انداء . لو تنفع ( لبت )  
أربحت الخمسين الف ليرة ، يوم وجدت ورقة اليانصيب على قارعة الطريق . لو  
تنفع ( لبت ) لبعيت في رحم امي او صلب ابي ، وما عرفت الدنيا !  
تسلل ايها النوم الى جفني ، تعال خلاصني من هذه الافكار .

عيناوي ، ما لها تضجان بالانوار ؟ ترى اي شيء يحدث لي الآن ، أهو مخاض  
روح ؟ ارى انني بدأت خلقاً جديداً . مسكني الحقيقير ، ثيابي الممزقة ، مهنتي  
الشوها ، كل ذلك بدأت احبه بافتخار ، فهو رمز رجولتي ، هو اوسمة النصر في  
معركة الحياة ، النصر على الألم . ولكن من قال لي ذلك . . من ؟؟ آه ، لقد  
تذكرت ، إنها هي - السائحة الاميركية . ها قد بدأت تهرف يا عادل ، فمتى  
حدثتك تلك الحسنة ؟ متى ، متى حدثتني ؟؟ لأن ، ها هي تدخل مسكني  
ضاحكة ، وشعرها الأشقر حول وجهها الفتان هالة من النور الذهبي . تعالي ،  
تعالي إلي ، فكم انتظرتك يا حبيبتي ، وكم انتظرت ! نامي ها بجاني في الفراش .  
أسندي بذراعك البض رأسي . ها انت ترين اني اتكلم الانجليزية بطلاقة . اوه ،  
لم اكشف ذلك إلا الآن . ما اجملك يا عزيزتي ، ما ابداع جسدك الجمون

الدافئ . ان يشعر القريب منك ببرد الشتاء . ما اسعد الحياة معك ، هذه حياة!  
يا عزيزتي ، يا عزيزتي ، احبك . كلا ، لا تتكلمي ، لا وقت لدينا الآن للكلام .  
ولم اشعر بمرور الساعات تترى على شريط الزمن ، الى ان شعرت بيدها  
اللطيفة تدغدغ جبيني ، وصوتها الحار يهتف بي ان قم انه الصباح . ففتحت عيني  
واذلاشي . ، اللهم الاقطة تموء . لم يكن ما رأيت الا احلاماً . فنفضت عني غبار  
الدم ، وارتديت ثيابي على عجل ، ثم توجهت الى المقهى بعد ان عرّجت على  
بائع فول . وبدأت يومي الجديد ساخناً يمزقني الحقد ، فما منع الاحلام ان  
تصبح حقيقة ؟ وعاد الزبائن يصرخون بي في استعلاء :

— نارة يا ولد ، واحد قهوة ، اثنين شاي .

فكنت الي الطلبات على مضض . وفؤدي يضطرم بالغضب الهائل . وإذا  
بالضجة تملأ الشوارع ، وإذا بالهتافات تشق عنان السماء :

نريد نحو البطالة ، نريد تحديد يوم العمل ، نريد زيادة الاجور!

لقد كانت مظاهرة عمال . فخرج معظم رواد المقهى يتفرجون عليها ساخرين ،  
بينما اثار الفقراء من المارة عاصفة تصفيق . غير الشارع مالبت ان دوى بصفارات  
البوليس ، ونشب بين المتظاهرين ورجال الامن اصطدام هائل . وكانت  
كراسي مقهانا في متناول ايدي الطرفين ، فانددفورا يتقاذفون بها في عصبية  
وهياج . واختلط الحابل بالنابل ، ففر صاحب المقهى وجميع زبائنه وخدمه ،  
ولم يبق وسط هذا الممترك الصاخب سواي . كانت الحيرة تشد بقدمي الى  
الارض ، بينما راحت جميع طبول العالم تضج في رأسي دويّاً . احسست في  
تلك اللحظة بجميع ما ابتليت به في حياتي من احتقار وشقاء ، وشعرت بحرمانني  
شامياً كما لم اشعر به من قبل ، فعميت بأعصابي النعمة المستطيرة ، وهجمت  
وانا من نار الثورة على بركان ، احطم الموائد والكراسي والاقداح ، وأضرب  
والكم كيفما اتفق ذلك . واشتد الضجيج وعلا الصياح ، الى ان مزقته بضع  
طلقات نارية ، ثم بدأ كل شيء يهدأ ، اللهم الا عدة رجال وجدت نفسي بينهم

وقد احاط بنا رجال الامن في حلقة محكمة .  
وما ان اقبل السجن علينا الباب ، حتى التفت الى اقربهم الى اسأله عن  
سبب مظاهرتهم ، فمضى يحدثني عن عالم يحكمه العمال والفلاحون ، لا  
فيه ثمن او محروم . فاستفزني الطرب ، وسألته باهفة عن سبيل الوصول اليه .  
فأجابني بثقة وحزم :  
- ألم تسمع النداء مجلجلا : يا عمال العالم اتحدوا . . .

